رحلة الشام

لإبراهيم عبد القادر المازني

عنوان الكتاب : رحلة الشام لإبراهيم عبد القادر المازني

اختيار : د. نضال الصالح

تقديم : د. نزار بني المرجة

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب)
رقم/115/ كانون الثاني

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
ttp://www.awu.sy h

رحلة الشام

لإبراهيم عبد القادر المازني

اختيار: د. نضال الصالح

تقديم: د. نزار بني المرجة

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (115)

إبراهيم عبد القادر المازني
1889-1949

بقلم د. نزار بني المرجة

هو أديب مصري كاتب وشاعر وروائي وناقد وصحفي مصري، كان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، وعضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة.

ويعتبر واحداً من رواد النهضة الأدبية العربية في العصر الحديث، ولد في القاهرة عام 1889 وتوفي في شهر أب/أغسطس 1949م. ونسبته إلى (كوم مازن) في المنوفية بمصر، تخرج من مدرسة المعلمين، وعمل في التدريس ثم في الصحافة، وهو واحد من أبرز مؤسسي ـ مدرسة الديوان ـ إلى

جانب عباس محمود العقاد وعبد الرحمن شكري..، كان مطلعاً بعمق على الأدبين العربي والإنكليزي، وكان مع الداعين إلى التحرر من الأوزان والقوافي.. والتوجه إلى كتابة الشعر المرسل.. رغم أنه غلب على شعره وحدة القافية..

وكان المازني في نشأته من الساعين إلى الاطلاع على نفائس الأدب العربي القديم، فضلاً عن اطلاعه على روائع الأدب الإنكليزي، وترجم الكثير منها، حتى قال عنه العقاد: (لم أعرف فيما عرفت من ترجمات للنظم والنثر أديباً واحداً يفوق المازني في الترجمة من لغة إلى لغة شعراً ونثراً..).

وأما كتاباته فقد تميزت بطابعها الساخر، حيث تمكن في أعماله الأدبية الكثيرة من رصد وعرض واقع الحياة في عصره بسخرية لاذعة وفكاهة محببة، وقدم لنا صوراً صادقة عن المجتمع المصري والمجتمع العربي عموماً وكل ما يكون يسود ويطبع الحياة في ذلك الزمن بسلبياتها وإيجابياتها، من خلال رؤيته، وأسلوبه المرح الخاص والبسيط.

وقد توقف المازني عن كتابة الشعر عملياً بعد صدور ديوانه الثاني في العام 1917، وتفرغ لكتابة القصة والمقالات والترجمات، والأعمال الإذاعية..، وكان بارعاً في حقل أدب

الرحلات، حيث قدم لنا عدة أعمال تميزت بالوصف الدقيق للحياة والمعالم والحوادث في البلدان التي زارها..

وأبدع المازني الكثير من الأعمال الدبية التي كرسته أديباً عربياً بارزاً في النصف الأول من القرن العشرين، ومن أبرز أعماله المطبوعة:

- (إبراهيم الكاتب) رواية.
- (إبراهيم الثاني) رواية.
- (أحاديث المازني) مجموعة مقالات.
- (حصاد الهشيم) كتاب في النقد.
- (خيوط العنكبوت).
- (ديوان المازني)
- (ديوان المازني)
- (رحلة الحجاز).
- (صندوق الدنيا) كتاب في السياسة والاجتماع.
- (عود على بدء).
- (فيض الريح).
- (مختارات من القصص الإنكليزي) ترجمة.

ـ (الكتاب الأبيض) ترجمة.

ـ (في الطريق)

ـ (قصة حياة).

ـ (ثلاثة رجال وامرأة).

ـ (من النافذة).

ـ (الجديد في الأدب العربي) بالاشتراك مع طه حسين وآخرين.

ـ (حديث الإذاعة) بالاشتراك مع عباس محمود العقاد وآخرين.

ـ (الديوان في الأدب والنقد) بالاشتراك مع العقاد.

ـ له ترجمات لمختارات من القصة الإنكليزية.

ـ له عدد كبير جداً من المقالات المتفرقة في روايات مصرية وعربية.

ـ ولده قصائد ذاع صيتها في عصره، من أبرزها:

ظمأ النفس ـ الإنسان والغرور ـ سحر الحب ـ الشاعر المحتضر ـ وصية شاعر ـ كأس النسيان ـ ما أضعت الهوى ـ أمطروا الدمع ....

ـ عمل في جريدة (الأخبار) المصرية مع أمين الرافعي، و(البلاغ) وصحف مصرية عديدة..

ـ أصدر مجلة (الأسبوع).

(رحلة الشام)

لإبراهيم عبد القادر المازني

ولعنا في تقديمنا لهذا الكتاب (رحلة الشام) للأديب المصري الكبير الراحل إبراهيم عبد القادر المازني، نجد أنفسنا مدعوين للوقوف مع أدب الرحلات، والذي من خلال نصوصه الغنية عادة بالوصف والذكريات والانطباعات عن الأمكنة والبشر والحوادث التي تتخلل تلك الرحلات، يشكل مرجعاً هاماً لكتابة التاريخ، بل هو يمثل ـ ربما ـ المرجع الأكثر نزاهة ومصداقية قياساً إلى المراجع الأخرى، كمذكرات القادة من صانعي الأحداث، أو كتابات المؤرخين المعاصرين لها، حيث تفتقد هذه الأخيرة الكثير من دقتها ونزاهتها وخصوصاً في ميادين السياسة والحروب، والمحطات القاسية في الحياة، لأنها قد تكون مكتوبة تحت ضغوط أو

نتيجة أهواء وانتماءات تدفع للمبالغة وتشويه الحقائق، وربما الطمس الكامل للحقائق أحياناً..، وهنا يجب عدم نسيان المقولة المعروفة (التاريخ يكتبه الأقوياء)!، وفي المقابل تبرز أيضاً ظاهرة ما يسمى بـ (المسكوت عنه..) التي تتسبب بدورها في إخفاء أو تشويه الكثير من حقائق التاريخ...

كان لابد من هذه الكلمات المختصرة، ونحن بصدد التقديم لمجموعة نصوص تشبه المذكرات، كتبها الأديب المصري الكبير الراحل إبراهيم عبد القادر المازني تحت عنوان واحد (رحلة الشام)، على سبيل تدوين يوميات زيارته للشام في إطار عضويته ممثلاً لنقابة الصحفيين في مصر، ضمن الوفد المصري رفيع المستوى من أمراء وأعيان الأدب، الذي شارك في احتفالية الألفية الهجرية لأبي العلاء المعري حين ضم ذلك الوفد عدداً من كبار رجالات الأدب في مصر وعلى رأسهم عميد الأدب العربي طه حسين، والأديب المصري الكبير عباس محمود العقاد، والكاتب المصري أحمد أمين، وعبد الوهاب عزام وعبد الحميد العيادي وأحمد الشايب...

وقد نشرت تلك اليوميات على شكل حلقات في مجلة (الجديد) المصرية التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة

المصرية، وذلك في أعدادها ذات الأرقام (50 ـ 51 ـ 53 ـ 54 ـ 57 ـ 67) الصادرة خلال العام 1974.

وقد جاء اختيار السيد رئيس اتحاد الكتاب العرب الدكتور نضال الصالح موفقاً إلى أبعد الحدود، لتسليط الضوء على إبداع أديب عربي كبير هو إبراهيم عبد القادر المازني، يتحدث فيه بأسلوب شائق وصادق عن زيارته التاريخية تلك لبلاد الشام، عبر إدراج تلك النصوص بعد جمعها من مصادرها وإصدارها ضمن سلسلة ـ الكتاب الشهري ـ المرافق لمجلة "الموقف الأدبي"...

وقد آثرنا في إعداد هذا الكتاب الوثائقي، إعادة ترتيب بعض الفقرات التي كتبها المازني، ونشرتها مجلة (الجديد) المصرية كما لاحظنا ـ وفق ما وردت في الأوراق المخطوطة للكاتب والتي بدت أحياناً وكأنها استطرادات للكاتب أثناء كتابتها في أوقات مختلفة، أو أنها جمع على غير هدى لمسودات تلك النصوص، دون الانتباه إلى تسلسلها الزمني وقد قمنا بذلك حرصاً منا على أن تكون مادة الكتاب في سياق التسلسل الزمني المنطقي ليوميات تلك الرحلة الهامة..، الأمر الذي كان سيوافقنا عليه المازني رحمه الله بالتأكيد..

لقد ترك الأسلوب الخاص للمازني الذي يعده النقاد صاحب مدرسة هامة متميزة في الأدب الساخر الغني بالطرافة وروح النكتة..، بصمات مرحة على تلك النصوص..، دون أن ينال ذلك من دقة الوصف والمعلومات الواردة فيها، مما يشكل عامل تشويق للقارئ ويقدم له مادة أدبية غنية بالمتعة والمعرفة معاً، إلى جانب كون تلك النصوص تمثل وثائق تنطوي على معلومات واقعية وتاريخية هامة، ستكون متاحة للقارئ والباحث في آن معاً.

وفضلاً عن هذا وذاك، فإن نصوص المازني تلك تؤرخ بدقة للعادات والأحوال الاقتصادية والاجتماعية لأبناء بلاد الشام وسورية على وجه الخصوص، مثلما تعرض جانباً من طبيعة الأحوال السياسية السائدة في سورية منتصف ثلاثينيات القرن الماضي..

ويجدر القول أن المازني نقل إلينا صورة حية عبر تلك الصفحات عما كانت تعيشه المدن والأرياف السورية، عبر تنقله بينها، حيث توزعت فعاليات ألفية المعري على مدن سورية عديدة (دمشق ــ حلب ــ حمص ــ حماة ــ المعرة ــ اللاذقية...)

وثمة إشارة هامة لابد منها، وهي أن ما كتبه المازني عن توجهه من دمشق إلى فلسطين عبر (جسر بنات يعقوب) على الحدود السورية الفلسطينية، واضطراره للعودة إلى دمشق نتيجة العراقيل الجمة التي وضعها رجال سلطة الانتداب البريطاني على فلسطين، حيث تبرز تلك الحادثة مدى الهيمنة البريطانية والتضييق على كل عربي يريد زيارة فلسطين منذ ذلك الوقت (1936)!، في الوقت الذي كانت تسهل فيه هجرة يهود العالم إلى فلسطين ووصولهم ودخولهم إليها بالآلاف.. تمهيداً لقيام الكيان الصهيوني الذي أعلن عن قيامه بعد اثني عشر عاماً من زيارة المازني للشام، ومنعه ـ وهو العربي ـ من دخول فلسطين!

وأما الفقرة الأخيرة في هذا الكتاب فهي نص الكلمة الهامة والمتميزة التي ألقاها الأديب المصري إبراهيم عبد القادر المازني في دمشق بمناسبة ألفية أبي العلاء المعري..، وفي ذلك النص سيلاحظ القارئ أن لغة المازني كانت لغة جادة ورصينة، وتختلف عن الصفحات السابقة لذلك النص، والتي ظل فيها المازني وفياً لأسلوبه الطريف والرشيق والشائق في الكتابة..

إضاءة على شخصية وأدب إبراهيم عبد القادر المازني:

فلسفة المازني*

بقلم الأديب المصري حافظ محمود

لك أن تتصور شاباً وسيماً رشيقاً، أو نحيفاً، لا يزيد طول قامته على متر ونصف متر وهو في العشرين من عمره يعمل بالتدريس في التعليم الثانوي، وبالذات في المدرسة السعيدية حوالي سنة 1910 حيث كان الطلاب مشهورين في هذه المدرسة بأجسامهم الرياضية. مثل فكري أباظة الذي كان أحد "كباتن" كرة القدم، وعبد الرحمن عزام الذي كان أحد زعماء الطلبة في ثوراتهم.. لك أن تتصور أستاذ الترجمة

---

* مجلة (الجديد) المصرية - العدد 73 - 15 كانون الأول 1975.

الذي كان أقل سناً من تلاميذه، أو بعض تلاميذه، والذي كان أصغر حجماً من تلاميذه، أو غالبية تلاميذه.

كان هذا الأستاذ هو إبراهيم عبد القادر المازني، وكان مما يضاعف عذابه في هذه الوظيفة، التي كان يتمناه الكثيرون، ما في تكوينه من الشاعرية أو الأحاسيس النفسية التي جعلت منه شاعراً لا يعجبه كثير من الشعراء، بما فيهم أمير الشعراء أحمد شوقي!!!

وأنا لم أكن أعلم هذه الواقعة عن تاريخ حياة المازني.. بل أن تلطفه مع زملائه وتلاميذه من أمثالنا كان يجعلنا نظن أن الفارق بيننا وبينه شيء قليل، وكان هو يزكي هذا الشعور في نفوسنا بما كان يعمل على محوه من الفوارق بيننا.. إلى أن أقمت له حفلة تكريم في ربيع سنة 1947 لما لقيته ولما لقيه منه أمثالي من أبناء الجيل الجديد في الصحافة إذ ذاك، وفوجئت في هذه الحفلة بأن اثنين من قادة الفكر هما عبد الرحمن عزام الذي كان إذ ذاك أميناً عاماً لجامعة الدول العربية، وفكري أباظة الذي كان نقيباً للصحفيين يطلب منه.. ويقف كل منهما ليقول في خطابه أن المازني كان أستاذه في المدرسة السعيدية، وأن كلاً منهما، إن كان قد أجاد الترجمة كثيراً

أو قليلاً من الإنجليزية وإليها، فإنما يرجع الفضل في ذلك إلى الأستاذ المازني..

المفاجأة الكبرى

ولم تكن هذه هي المفاجأة الوحيدة في هذه الحفلة.. بل كانت المفاجأة الأكبر حينما وقف المازني يشكر المحتفلين به أو المتكلمين في حفلة التكريم لم ينكر هذه الواقعة، لكنه أنكر كل ما وصفه به الخطباء من الصفات قائلاً: (كل ما سمعتموه من أولئك الخطباء عن صفاتي يكاد يكون خيالاً أكثر مما هو حقيقة، لكنني لا أرفضه لأن المدح لذيذ. فقط أردت أن أحذركم من مبالغات الذين يكرمون أصدقاءهم، وأن أنبهكم إلى النظرية القديمة القائلة: "الشعر أعذبه أكذبه"!!

الفيلسوف الساخر

هكذا كان المازني فيلسوفاً. وإن لم يتنبه أحد إلى هذه الفلسفة المازنية.. ولقد جنت هذه الفلسفة على المازني أحياناً وأحياناً كثيرة.. لأن بعض ناقديه قد نظروا إلى بعض الأخيلة التي دونها وكأنها وقائع ثابتة يحاسبونه عليها.

كان خيال المازني يذهب به أحياناً إلى أن يصور نفسه عملاقاً استطاع أن يقهر بجسمه "الضئيل" عصبة من جبابرة الأجسام.. لم يدرك نقاد المازني ما في هذه الصور التي كتبها من الفلسفة الساخرة، والأكثر من هذا وأهم أنهم لم يدركوا المعنى الجليل في بعض هذه الصور، معنى قدرة العقل البشري الممتاز على أن يغلب الأبدان التي ليست لها ميزة إلا الضخامة.

إن المازني بهذه الفلسفة قد أكبر العقل وجعل منه القوة المحركة للإنسان. كما أراد الله. والواقع أن اعتزاز المازني بعقله.. وبعقول الآخرين كان عظيماً.. فالمازني الذي احتمل بصبر عجيب كل مكاره الحياة قد لقيته ذات مساء وهو يكاد يبكي.. أتعرف ماذا كان السبب؟ كان السبب أن رأسه كاد يتحطم.. وإليك القصة من أولها.

كان المازني على موعد معي بدار نقابة الصحفيين، وكانت هذه "الدار" في بداية عهد النقابة مجرد شقة صغيرة في عمارة ايموبليا بشارع شريف.. وكان شارع شريف في سني الحرب العالمية الثانية أحد الشوارع الخمسة التي كان لا يرتادها ليلاً إلا جنود بريطانيا المحتلون.. ولم يكن أولئك الجنود يرتادون هذه الشوارع إذ ذاك إلاَّ بحثاً عن كؤوس الشراب وبنات الهوى..

في شارع شريف التقى المازني ليتئذ بجندي استرالي قد شرب حتى ذهبت الخمرة بعقله.. وأخذ هذا الجندي السكران يداعب المازني بعصاه مداعبة ثقيلة.. فلما سأله المازني عما يريد منه، قال الاسترالي السكران، لا شيء أكثر من أنني أريد أن أستمتع بتحطيم رأسك..

يقول المازني بفلسفته الساخرة: لقد تصورت في تلك اللحظة كم دفعت من الجهد والمال، وكم ضحيت بلقمة العيش كي يكون لي رأس عامر، فإذا بسكير جهول يريد أن يقضي على هذه كلها لمجرد الفكاهة!!

لم يفكر المازني في أنه كان في هذه اللحظة عرضة للموت بقدر ما كان يفكر في كنوز عقله من الضياع!!

ومع هذا فإن طبيعة المازني الساخرة لم تخنه حتى في هذا الموقف الدقيق.. فقال للاسترالي السكران: حقاً إنها تكون مباراة بديعة بينك وبيني..

ونظر الجندي الاسترالي السكران إلى قامة المازني التي كانت تقل ذراعين عن قامته الفارعة وهو يضحك قائلاً: أفأنت تريد أن تبارزني!!

فـرد المـازني بقولـه: نعـم.. وبشـرط أن يكـون ذلـك أمـام جمهور من النظارة يصفق لي أو لك..

استغل المازني غرور الأسترالي السكران حتى ذهب به إلى طريق آخر عامر بالناس.. وعند تجمع الناس حولهما فر الاسترالي العملاق، وفاز عليه المازني الضئيل الجسم بالعقل العظيم.

المازني وثورة الأدب

يبدو أن هذه الواقعة التي رواها لي المازني في حينها كانت نموذجاً لمصادمات مختلفة الألوان في حياة المازني.. ويبدو أن هذه النماذج من مصادفات الحياة هي التي أوحت إليه كتابه "في الطريق" الذي أصدره في سنة 1936، وقد جمع هذا العنوان بيننا، فقد كنت إذ ذاك، وأنا أتدرب على أعمال الصحافة أنشر فصولاً بعنوان "في الطريق" أيضاً..

ولست أريد بهذه الإشارة أن ألمح إلى أن المازني قد تأثر بي. بل العكس هو الصحيح، فقد كنت بالنسبة له تلميذاً بالنسبة لأستاذ، وقد تتلمذت بالفعل على كتابه (صندوق الدنيا) الذي أصدره في سنة 1929.

صندوق الدنيا

كان كتاب "صندوق الدنيا" في رأيي نقطة تحول في الأدب القومي فبين العشرينات والثلاثينات كانت أصوات الشباب ترتفع بالشكوى من أن أدبنا ليس له طابع مميز بالقدر الكافي.. كنا نقرأ للكتاب الإنجليز فنشعر أن الكاتب إنجليزي، بل كنا نستطيع أن نحدد العصر الذي عاش فيه، بينما كنا نقرأ لبعض كتابنا فلا نستطيع أن نميز عصرهم أو طابعهم القومي إلا القليل منهم..

إزاء هذه الصيحة أخرج المازني كتاب "صندوق الدنيا" الذي يستطيع أي قارئ أن يقول ـ ولو لم يقرأ اسم المؤلف ـ أن هذا الكاتب كاتب مصري عاش في الثلث الأول من القرن العشرين..

لقد سبق المازني الدكتور هيكل الذي أصدر كتاب "ثورة الأدب" في سنة 1933 ـ سبقه بأن طبق مبادئ ثورة الأدب بالفعل، ونحن لا نعرف أن كتاباً في الأدب العربي المصري قد سبق كتاب "صندوق الدنيا" للمازني إلا كتاب "حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحي وإن اختلف طابع كل منهما عن الآخر كثيراً..

هذا الكلام الذي أقوله مردود عليه طبعاً بأن هناك أبداً قصصياً قد ظهر قبل كتاب "صندوق الدنيا" بجيل.. ويبدو أن المازني نفسه قد أدرك هذا المعنى فألحق كتاب "صندوق الدنيا" بقصته الطويلة التي صدرت في سنة 1931 ــ قصة "إبراهيم الكاتب".

المازني الشاعر

لقد نشأ المازني في دنيا الأدب شاعراً منذ كان طالباً في مدرسة المعلمين العليا.. كان يرتاد ندوات الشعراء ويطارحهم الشعر، بل هو الذي ترجم إلى العربية الشيء الكثير من شعر فطاحل الشعراء الإنجليز.

ولقد بدأ المازني قول الشعر خطوة بخطوة مع شقيقه الروحي عباس محمود العقاد.. لقد قالا الشعر معاً منذ سنة 1907، وكان المازني أسبق من العقاد في إصدار ديوان شعره الأول.. ديوان المازني الأول صدر في سنة 1914، بينما صدر ديوان العقاد الأول في سنة 1916، بل لقد أصدر المازني جزءاً ثانياً من ديوانه، ومع هذا كله كانت لديه الشجاعة أن ينقد نفسه بنفسه، وأن يتنازل عن صفته كشاعر!

هل كان المازني محقاً في إنكار صفته كشاعر؟؟ أما هو فيرد على هذا السؤال بأنه أراد أن يكون غير مقيد بمستوى الشعراء، وهي شجاعة أدبية لم يسبق المازني ولم يلحق به أحد فيها.. أما بعد أن انتقل إلى جوار ربه في سنة 1949 فقد وجد شعره من يقدره ومن ينشره، فأعيد طبع ديوانه بمقدمة كتبها الشاعر محمود عماد، وقال فيها شعراً:

نظم الشاعر هذا الشعر يوماً وارتضاه. وبيوم آخر أنكره ثم نفاه

هل أنكر المازني موهبته الشعرية لمجرد أن يكون مطلق اليد في نقد كبار الشعراء كما يقول؟

إنني أعتقد أن هناك سببين آخرين:

- السبب الأول أن المازني، كقمة في الأدب لم يعد يرضى لنفسه بما دون القمة في فن من فنون الأدب، وهو الشعر.
- السبب الثاني، وهو ما جربته مع نفسي، أن الشاعر، إذ لم تكن تسنده أسباب أخرى من أسباب الحياة، ضاع في زحام الحياة.

ومهما يكن من شيء، أو مهما كانت الدوافع للمازني على محاولة طي صفحته كشاعر، فإنه قد استطاع بهذا

الإجراء الشجاع أن يهاجم من أراد نقد أشعارهم دون حساب للرد عليه..

ولهذا كان المازني عنيفاً جداً في نقد شوقي..

كان عنيفاً إلى الدرجة التي قال فيها ذات مرة "إن شوقي ليس شاعراً ولا شبيهاً بشاعر"!!

ويبدو أن المازني في نقد شوقي كان حائراً بين ذهنيته الأدبية المتأثرة بشعراء الإنجليز وبين نفسه الطيبة التي لا تحتمل الخصام طويلاً، ولهذا تراه قبل وفاة شوقي قد عاد فأنصفه وعدل عن الهجوم عليه..

هذا العدول في تاريخ المازني يصور لنا نفسيته أصدق تصوير، فتجده رجَلاً لا يستطيع البقاء على ما يكره الناس ولو كان هذا الذي يكرهونه حبيباً إلى نفسه.

وهكذا بارح المازني هذه الدنيا وليس له فيها خصم واحد..

رحلة الشام

لإبراهيم عبد القادر المازني

وكلمته في مهرجان ألفية أبي العلاء المعري

أتيح لي، في الشهور الستة الأخيرة أن أقوم برحلتين طويلتين، واحدة إلى الشام للاشتراك في مهرجان المعري أو عيده الألفي، بدعوة من المجمع العلمي العربي بدمشق، وبالنيابة عن نقابة الصحفيين. والثانية إلى العراق بدعوة من حكومته الموقرة لإلقاء طائفة من المحاضرات الأدبية وكانت الرحلة الأولى في الصيف، وقد نشر "البلاغ" البحث الذي كنت أعددته لمهرجان المعرى، ووصف ما كان فيه، فلا حاجة بي إلى العودة إلى ذلك.

وكانت الثانية في الشتاء وهي أطول وأحفل، ولست أكتب اليوم لأصف شيئاً، مما كان في هذه الرحلة الشتوية، فإني أهيء لهذا كتابين أرجو أن يوفقني الله فأخرجهما قريباً بعد أن أتلقى ما تركت في العراق من أوراقي. وإنما أكتب هذا الفصل لأعالج مسألة قومية.

ويحسن قبل أن أتناولها بكلام أن أقول إني حرصت في كل رحلاتي، وهي كثيرة، على مبدأين لم أحد عنهما قط، وإن كانت صلات المودة والصداقة بيني وبين كثيرين من أبناء البلاد العربية الشقيقة، تغرى بالتبسط وترك التحرز والتحفظ. فأما المبدأ الأول فإني لا أدخل في أمر في شؤونها أو التعرض بخير أو شر لأحد من رجالها وأما المبدأ الثاني فأن أكون مصرياً قحاً لا يعرف غير مصر ولا يجعل باله إلا إلى سمعتها، ولا يذكرها ولا يسمح بذكرها أو ذكر أحد من رجالها بغير الخير. وقد كلفني هذا شططاً وحمل أعصابي في بعض الأحيان فوق طاقتها. فما كانت أحوالنا في كل حال بالمرضية. وأنا رجل أوثر الصراحة والحق على المداراة والمكابرة، ولكن هو الواجب. ومن فضل الله علي أني تعلمت وتعودت أن أقدم الواجب على الهوى.

ولعل أكثر المصريين لا يدرون أن مصر كتاب مفتوح تقرأه البلاد العربية صفحة صفحة، وسطراً سطراً، وحرفاً حرفاً، وقد لا يدركون أن لبلادهم مقاماً ممتازاً ومنزلة ملحوظة، وأن صحفها تدرس ـ ولا أقول تقرأ ـ وتغربل وتنخل، ولا يهمل عنها حتى الإعلانات وأن القوم يعرفون أعلامنا واحداً

واحداً، وفي وسعهم أن يكتبوا لهم تراجم دقيقة مستفيضة، وأنهم واقفون على أحوالنا وسير الرجال عندنا، ومجرى الحوادث في أرضنا وقوفاً يدهش ويروع ويربك.

في سنة 1936 كنت عائداً من العراق مع صديقي الأستاذ أسعد داغر، إلى شرقي الأردن، من صحراء جرداء لا ماء فيها ولا شجر، وأنَّا لنتلمس طريقنا فيها على حذر، وإذا بسيارة مقبلة، فلما لمح راكبها الطرابيش على رؤوسنا استوقفنا وأقبل علينا يسألنا عن المفاوضات المصرية الإنجليزية وما يحتمل أن تفضي إليه، وهل يرجى لها نجاح؟ ولم نكن نعرف شيئاً يجيز لنا أن نعرب عن أكثر من الأمل، فدعا لمصر بخير ومضى فجعلنا نتعجب لهذا الشيخ ـ فقد كان من شيوخ العشائر ـ وعنايته بأخبار مصر ودقة تتبعه لها.

وفي هذا الشتاء، كانت صحف مصر تتخطف في بغداد، وغيرها من مدائن العراق، وكان في بعضها أسماء المرشحين في الانتخاب لمجلس النواب، فكان أغرب ما في الأمر أني أنا المصري لا أعرف شيئاً عن معظم المرشحين، على حين كان العراقيون لا تخفى عليهم من أمرهم خافية، وقد جاء تقديرهم لاحتمال النجاح والإخفاق أقرب إلى الصحة من تقديري فيما

بيني وبين نفسي ـ فقد كنت في هذا وما إليه أتوخى أن أصغي إليهم دون أن أقول شيئاً.

وما من كتاب ينشر في مصر إلا وهو يلتهم التهاماً في البلاد العربية، وهم لا يكفيهم أن يقرأوا ويدرسوا، ولا يقنعوا إلا بأن يقفوا على بواعث التأليف أيضاً، ولماذا طبع في هذه المطبعة دون تلك.. الخ.

وفي سنة 1930 برز لي شاب في صحراء الحجاز ــ عند وادي فاطمة ــ وسألني "ألست المازني"؟ قلت "نعم" فكيف عرفتني؟ فقال "عرفتك من صورة لك نشرتها مجلة الاثنين".

وليست هذه سوى أمثلة قليلة من مئات يسهل سردها بلا عناء.

والذي أريد أن أقوله هو أن على كل مصري أن يذكر أن البلاد العربية مفتوحة العيون والآذان، وأن يحرص على أن لا يجري لسانه أو قلمه، بما يسيء إلى سمعة مصر أو يغض من مقامها في الشرق العربي.

وأنا كما يعرف القراء رجل لا أنتمي إلى حزب، وقد نأيت بنفسي عن المعترك السياسي الحزبي منذ سنوات عديدة وليس في نيتي أن أعود إليه ولو أفضى ذلك إلى ترك الصحافة،

وإذا كنت قد ظللت متشرفاً بالعمل في "البلاغ" فذلك لأن صاحبه تفضل فترك لي رأيي واستقلالي لثقته أنه لا مآرب لي، وأن المصريين جميعاً سواء عندي، وإني لا أغمط أحداً فضله، ولا أضن بالتأييد والمناصرة على من يحسن.

وقد قال لي عراقي حكيم "يا أخي إن الله قد خلق لنا عيوننا في وجوهنا لنرى بها ما هو أمامنا لا لنظل نردها إلى ما هو وراءنا، أفليس خيراً للبلاد العربية أن تنظر إلى المستقبل وتنصرف عن الماضي بخيره وشره؟".

وما أرى إلا أن كلمتي هذه ستغضب الناس جميعاً. ولكنها كلمة الحق، ولست أبالي من رضى ممن غضب، فليس همي أن يرضى الناس، ولا أنا أخشى غضبهم، فمالي عندهم مآرب، فأحاسنهم أو أصانعهم، فإذا استجابوا لدعوة الحق، فبها ولله الحمد والمنة، وإلا فقد بلغت وبرئت ذمتي والله الموفق.

(1)

كنت أحلم بأيام أقضيها على ساحل بحر الروم في سكون ودعة، وإذا بمجلس النقابة يفاجئني، ونحن مجتمعون في دار البصير بالإسكندرية، بندبي لتمثيله في مهرجان

المعري، فقلت لنفسي "جاءك الموت يا تارك الصلاة" فقد كنت أعود إلى المعري من حين إلى حين، فأتناول من آثاره أقربها إلى يدي وأقرأ أبياتاً من اللزوميات أو سقط الزند أو سطوراً من الفصول والغايات أو رسالة الغفران ثم أطوي الكتاب وأنتقل إلى سواه أو أروح أفكر فيما يشغلني من أمور دنياي أو أترك له المكتبة كلها وأجلس إلى نافذتي أطل منها على خلق الله فالآن صار علي أن أحشد آثاره كلها وكل ما كتب فيه الأقدمون والمحدثون وأعكف عليها عكوف الدارس لا المتصفح المتلهي، وسيستغرق ذلك وقتي كله، فما بقي على السفر إلا شهر أو نحوه، وسيصرفني عن السعي والعمل وكسب الرزق بعرق الجبين، فإني أعمل لأطعم، وعلى قدر العمل يكون الرزق، وليس من العدل أن يجيء المعري بعد أن شبع موتاً وفناءاً، واستراح وإن كان لم يرح؛ فيشق الأرض ويخرج لي منها ليقطع رزقي ورزق عيالي.

واستخرت الله وتوكلت عليه، وقلت لابد مما ليس منه بد، فما كان ثم سبيل إلى الاعتذار مخافة أن يحمل على غير محمله، أو يؤول بالعجز والقصور، وإني لعاجز ولكنه لم يبلغ من عجزي أن يعييني أن أكتب كلمة في هذا المعري تقبل على التسامح.

وصارت المسألة هي "ماذا أكتب؟ وأي موضوع أتناول؟" وكنت أعلم أن أعلام الأدب في البلدان العربية مدعوون إلى هذا المهرجان، وكنت على يقين جازم أنهم لن يدعوا لي سم خياط أنفذ منه، وقد دعيت من مصر وحدها جمهرة من أعيان البيان وأمراء النثر والشعر، وأساطين البحث العلمي (أُوف)، وأساتذة الفلسفة والتاريخ (يا حفيظ) مثل العقاد وطه حسين وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وعبد الحميد العبادي وأحمد الشايب، ماذا يصنع صعلوك مثلي بين كل هؤلاء الملوك؟ ألا حيلة لي أردهم بها عن هذا المهرجان فيخلو لي الميدان؟

وأصبحت يوماً على أحب وجه لي، وإذا بالتليفون يدق والعقاد يطلبني وينبئني أنه ينوي الاعتذار، وأنه مشغول بما يؤلف فلا وقت عنده للسفر، فقلت لنفسي "يا فرج الله، يا ما أكرمك يا رب". هذا واحد بألف قد آثر القعود، فخلت لي رقعة فسيحة يسعني فيها ــ والقليل يكفيني ــ أن أجول وأصول، وأصيح هل من منازل؟ هل من مبارز؟ وأن العقاد لقدوة صالحة، وأن المعري لقدوة أخرى فما بارح بيته أربعين سنة وزيادة ودرت على أهل العلم أسألهم عن "التعازيم" التي تزهد الناس فيما يراد تزهيدهم فيه، لعلي أستطيع أن أصرف

طه وشركاءه عن السفر فأستأثر بالحلبة كلها، وخطر لي أن أحاول أن أبعث إليهم بموجة نفسية تنيمهم، على البعد، فأوحي إليهم أن يقعدوا عن السفر وعلمت أنهم ذاهبون بالقطار، فقلت أذهب أنا بالطائرة، وعسى الله أن يعطل قطارهم أليس الله يفعل ما يريد؟ ألم تمت أمي وهي عني راضية، ولي داعية؟ بل لقد تمنيت أن تسقط الطائرة فلا تقتلني ولكن تكسر لي ذراعاً فيكون لي هذا عذراً كافياً ومخرجاً وسيعاً من هذا المأزق، ويتسنى لي أن أدعي أني كنت أعددت بحثاً أي بحث، ولكن مشيئة ربي قضت أن أتخلف ولما كان قلمي عويصاً، وخطي رديئاً، وآلتي الكاتبة قد سطا عليها من سطا، ولا بارك الله له فيها، فإن من العسير أن أنيب عني أحداً في تلاوته.

وكان لابد أن أبلغ المجمع العلمي العربي بدمشق عنوان بحثي، والعنوان آخر ما أكتب، وأنا لم أكتب شيئاً فقلت إن الله لم يخلق لي هذا الرأس الذي بين كتفي، عبثاً ــ أبعث إليهم بأي عنوان يخطر لي الآن، وأحاط فأقول في كتابي إليهم أني مندوب نقابة الصحافة المصرية وأنه يجب من أجل هذا أن يكون لي مكان ملحوظ بين ممثلي الهيئات في هذا

المهرجان ثم أسافر على بركة الله، وأعترض على كل مكان أوضع فيه، بين الباحثين أو الآكلين، أو القاعدين أو الواقفين، أغضب، وأثور وأحتج باسم الحصافة المصرية على ما لحقها من هوان، وأقاطع المهرجان، وأذهب أتنزه على هواي، وكفى الله المؤمنين شر القتال ولا بحث ولا يحزنون ولا وجع دماغ.

ومن العجيب أن هذا الخاطر استولى على نفسي واستبد بها، فما تناولت القلم إلا قبيل السفر بيومين اثنين، وكنت قد شبعت من القراءة والمراجعة وأشبعت المعري وأوسعته ذماً ونقمة أليس هو الذي جر علي هذا العناء الذي كان بي عنه غنى؟ ولماذا عدت السنون التي انقضت على وفاته بالحساب القمري؟ ولو عدت بالحساب الشمسي لبقي على تمام الألف ثلاث وثلاثون سنة، والله إنها لفكرة أذهب إلى القوم وأقول لهم أن إقامة المهرجان في هذا الأوان غلط في غلط وإن الشيخ عفا الله عنه يستحمقنا ويستقل عقلنا ويسخر منا في قبره إذا كانت عظامه ما زالت باقية فيه، أو في الجنة أو في جهنم، فما أدرى ماذا صنع الله به. وأنه لقادر على مثل هذه السخرية فإنه في كتبه يعابث الملكين اللذين يحاسبان الميت ويسألهما أسئلة نحوية ولغوية.

وكان هذا كله مني عبثاً لا خير فيه ولا طائل تحته. فركبت الطائرة فلم تسقط وركب إخواني القطار فلم يتعطل، وكان أول ما أصابني مما يسميه الأستاذ الجليل إسعاف بك النشاشيبي "العناء في سبيل أبي العلاء" إني فقدت "قداحتي" قبل أن أركب السيارة إلى المطار. وقد يستخف الناس بهذه الخسارة وأنها لخسارة هينة أهون بما ثمنه قروش، ولكني أستحيي أن أتقدم إلى من لا أعرف وأسأله أن يعيرني عود ثقاب، أو أن ابدأه بأي كلام. فما العمل؟ كأن العمل أني ظللت إلى أن بلغت الفندق في دمشق أضرب يدي في جيبي لأخذ سيجارة ثم أخرجها فارغة وأني حرمت التدخين أربع ساعات ونصف ساعة. فتأمل هذه الفاتحة.

(2)

وكان المطار يعج بالخلق، نظرت فإذا الطائرات المصرية شتى، فتقدمت إلى الميزان فتبسم الضابط ـ ومعذرة إذا كنت مخطئاً فإنهم هناك جميعاً يلوحون ضباطاً ولا علم لي بدلالات هذه الأشرطة التي على الأكتاف ـ ولكن هذا لم يكن دوري، وعلى كثرة الناس والطائرات، وبعضها يذهب إلى فلسطين والبعض إلى بيروت، أو تونس، أو دمشق، لم تكن ثم

ضجة أو زحام وكان كل شيء يجري بنظام وفي سكون. يوزن المسافر وتوزن حقائبه فيحملها الخادم إلى (الجمرك) ويذهب المرء إلى مكتب الجوازات، ومنه إلى (الجمرك) ثم يخرج إلى حديقة صغيرة على هامش المطار حتى يدعى إلى طائرته.

وكانت طائرتنا (الفسطاط) ضخمة ذات محركات أربعة، ولم أر أظرف ولا أرق حاشية، ولا أصبح وجهاً من الطيارين اللذين يقودانها، وقد أسفت لأن الحياء منعني أن أتحدث إليهما وأعرف اسميهما وكان حذقهما كفاء ظرفهما، فكانت الطائرة تهبط في كل مطار على الطريق في موعدها لا تتقدم عنه ثانية ولا تتأخر، ولم أشعر إلا بالراحة والطمأنينة فاضطجعت ونمت.

فلما نزلنا في (اللد) أو على الأصح في مهبط قريب من مطار اللد، قلت في سري "آه.. ماذا ترى سيصنع بي هذا الرجل المنتفخ الأوداج القاعد في خيمته؟" لقد عودتني فلسطين في السنوات الأخيرة أن تردني عنها وأن تتلقاني متجهمة ولا تأذن لي في الدخول إلا وهي كارهة متوجسة كأني كتلة من الديناميت لا إنسان من اللحم والدم. وقد حدث مرة أن دعتني قبيل الحرب محطة القدس اللاسلكية ـــ وهي مصلحة

حكومية ـ إلى إذاعة حديث منها عن الهجرة النبوية فقبلت مغتبطاً وسافرت بالطائرة. فلما وقفت أمام الموظف المختص بالجوازات رأيته يتردد وهو يختم الجواز، ويراجع اسمي، ثم يتناول كتاباً أسود ضخماً فينظر فيه ثم يدعوني أن أنتظر في المقصف أو حيث شئت، وبعد ساعة أو أكثر يدعوني إليه ويعرب لي عن أسفه لأنه مضطر أن يأبى علي الدخول، وأن يعيدني إلى مصر، ثم تفضل فأنبأني أن الطائرة القادمة من بغداد ستصل بعد ثلث ساعة، ففي وسعي أن أستقلها إلى مصر.

فتعجبت لأن حكومته هي التي دعتني فكيف تصدني عن بلادها؟ وأريته عقد الإذاعة، فهز رأسه، وقال إن هذا ليس من شأنه وإنما تلقى أمراً فهو يمضيه.

قلت: "أليس هنا تليفون لأتحدث مع محطة الإذاعة وأبلغها الخبر فلست أحب أن تظن بي أني أخلفت الوعد".

قال: "بلى" في الرملة تليفون وتستطيع أن تتحدث منه وتخاطبها و"الرملة" ـ فاعلم ـ على مسافة عشرة كيلو مترات.

وكان إلى جانب غرفته، غرفة أخرى فيها مكتب لشركة مصر للطيران وبها تليفون، ولكنه آثر أن يبعث بي إلى الرملة على مسافة عشرة كيلو متراً.

واتصلت بمحطة القدس بعد لأي، فاتصلت هذه بإدارة الأمن العام في فلسطين فعدلت عن المنع وأذنت لي في الدخول فأقبل موظف الجوازات مهرولاً ووجهه طافح بالبشر والسرور، ولسانه يجري بعبارات التهنئة لي.

قلت يا أخي؟ إنما التهنئة لكم دوني، فما يعنيني أن أدخل أو أخرج، وأن الأمرين عندي سيان، وقد كان الطيران إلى هنا نزهة جميلة، وأرى حفاوتك بي الآن عظيمة وكنت قبل ذلك تنسى أن على بعد ذراعين من غرفتك تليفوناً غير حكومي، ولا تذكر إلا التليفون الذي في الرملة فإذا كان لابد من الرد أفلا يمكن أن يكون بالتي هي أحسن دون التي هي أخشن؟...

وذكرت هذا الذي اتفق لي منذ ست سنوات أو أكثر فأشفقت أن يتكرر وضاعف هواجسي ووساوسي أن موظف الجوازات الذي في الخيمة صرفني على أن يبعث إلي بالجواز في الطائرة، ولم يكن وجهه وهو يتأملني يبشر بخير، فانصرفت وأنا قلق ولم أستطع أن أذوق عصير الليمون الذي قدمته لنا شركة مصر بالمجان ولكن الله سلم!.

وعادت الطائرة إلى التحليق، وكنت راكبها الوحيد بعد أن غادرها الآخرون في بور سعيد واللد، فانتفخت ووضعت رجلاً على رجل، ولكني شعرت بالبرد وكنت أرتدي أخف ما يرتدي في الصيف فتجمعت ونظر إلي الطيار الثاني وهو يبتسم وهز رأسه كأنما يريد أن يقول إني مسافر بطائرة خاصة فأشرت إليه أني مقرور، فخف إلي جزاه الله خيراً وحجب منافذ الهواء وجاءني ببطانية فشكرته ونمت.

وهبطنا في مطار "المزة" على مسيرة دقائق بالسيارة من دمشق فإذا بأربعة حول منضدة يدور عليهم الجواز ويفحصه كل منهم ولكني كنت مطمئناً فإن هذه دمشق لا اللد، وسورية لا فلسطين والأمر هنا لأهل البلاد لا لدعاة الوطن القومي، ولم يخب ظني لقيت من رجال الجوازات وموظفي الجمرك التيسير والحفاوة، ولم يكن معي شيء إلا ثيابي، وإلا الكلمة التي أعددتها لمهرجان المعري وقد أظهرتها لهم وأطلعتهم عليها فتبسموا وتركوها لي في الحقيبة وليتهم أخذوها، إذن لوسعني أن أعتذر بأنها معهم وأني لا أستطيع من أجل ذلك أن ألقيها، فأتقي سواد الوجه، ولكن كل شيء كان لمكيدتي فلا مفر من الفضيحة، على ما يظهر، بين هذا الحشد من أعلام الأدب والبيان والأمر لله.

وليست هذه أول مرة أزور فيها دمشق، فقد زرتها قبل عشر سنوات، لا أراها قد غيرت منها كثيراً، فما زالت كما عهدتها، وما انفك من عرفت من أبنائها كما كانوا ـ كأن السن لم ترتفع بهم أو كأن شبابهم عليهم سرمد. حتى من كانوا شيوخاً يوم لقيتهم قديماً، ظلوا ملء العين بهاء وإشراق ديباجة فلا بد أن تكون دمشق هذه قطعة من الجنة، أليست الأنهار تجري من تحتها، أليس أهلها منها في جنات وعيون "لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون" "يطاف عليهم بكأس من معين" "بيضاء لذة لشاربين" "وعندهم قاصرات الطرف عين" "كأنهن بيض مكنون" آمنت بالله.

وكان أول من رأيت على باب الفندق صاحب مجلة "الأحد" ـ إيليا شاغوري ـ وهو صديق قديم أثير، لولا أن يكره أن أصفه بالقدم، وله العذر فإنه ناعم رفاف الشباب، والله وحده أعلم بما طوى من سنين، ولعل قلبه الكبير العطوف هو الذي يرقرق في محياه هذا الرونق العجيب، ولكن ألم أقل إن القوم في دمشق لا يهرمون؟

لمحت خلفه وعلى قيد أمتار منه أستاذ العربية الجليل إسعاف بك النشاشيبي أعلم من عرفت بلغة القرآن وأدبها وتاريخها وأغير من لقيت على دين محمد ﷺ الصحيح.

فقال وهو يعانقني "سل إيليا، ألم نكن نذكرك قبل دقائق؟" قلت "صادق، اذكر القط يجيئك ينط".. وقال إيليا: "ماذا تنوي الآن؟".. قلت: "أستوثق من الفوز بغرفة في هذا الفندق الفخم، ثم آكل فإني أتضور".. قال: "هنا؟".. قلت: "ولم لا؟" قال: "أعرفك تحب الآكال الشامية، ولن تجدها هنا، فتعال معي" وألححنا معاً على الأستاذ إسعاف حتى أسلم أمره إلى الله ففزنا به.

(3)

رأيت عصر ذلك اليوم الأول أن أزور المجمع العلمي، فإنه هو الذي يقيم المهرجان وهو الداعي إليه، ثم لأن لي معه قصة، فقد بعث إلي رئيسه الجليل الأستاذ محمد كرد علي، قبل عام ونصف بكتاب تلو كتاب؛ ينبئني أن المجمع اختارني عضواً فيه، فقصرت في واجب القبول والشكر أو هذا ما ظن القوم بي؛ فقد حمل إلى غير واحد من القادمين من دمشق عتب صديقي الأستاذ كرد علي. أما الحقيقة فهي أني ما قصرت ولا أهملت، فقد كتبت الجواب ودسسته في جيبي لأضعه في صندوق البريد فنسيته ـ وما أظن به إلا أنه في بعض جيوبي إلى

الآن، فإني أغير ثيابي فيحرص أهل بيتي على أن يدعوا أوراقي حيث أتركها ـ فإذا كان لابد من نقلها وضعوها لي تحت المخدات أو حيث يسهل أن أراها، واكتفوا بتبيهي فأقول لهم "طيب، طيب" وأعود إلى ما أنا مشغول به، وأنسى كل ما عداه؛ كالعادة. وتمضي الأيام ويعلو الكوم الذي تحت المخدة، حتى يتعذر النوم المريح فأضجر وأتذمر: وأروح أنفخ وأسخط وأقول "ألا يمكن أن أجد في هذا البيت الطويل العريض وسادة لينة؟ "فيقولون لي" أن الذنب للأوراق التي نحشرها تحت الوسادة، لا للوسادة فأصيح "وهل أنا الذي يحشرها أم أنتم الحاشرون؟ خذوها فأحرقوها أو اصنعوا بها ما شئتم فما يعنيني إلا أن أريح هذا الرأس المكدود. لكأني والله عبد رق اشتريتموه! أتعب لتنعموا بالخفض والدعة ونضرة العيش، وكان حظي بعد الجهد والمشقة. مسكة ووسادة كالحجر. فإذا شكوت قلتم هي الأوراق، سبحان الله العظيم، كأنما كان يمكن أن تعيشوا طاعمين كاسين مكفين لولا هذه الأوراق".

وهكذا نسيت الجواب، فضاع أو أكلته النار أو لا أدري ماذا صنع الله به. فلا بد من زيارة المجمع والاعتذار إليه.

وقال أحد الإخوان: "ولكنك لا تعرف الطريق إلى المجمع".. قلت: "بل أعرفه، فإنه من المسجد الأموي قريب".. وقال آخر "يحسن أن نطلب لك مركبة تحملك إليه، ويتفق لك مع سائقها على الأجر سلفاً".. قلت: "لا بأس".

وجاءت المركبة، وقيل للسائق احمله إلى المجمع العلمي فهز الحوذي رأسه وقال: "تكرم"، وزاد أحد الواقفين فقال للحوذي إنه عند مسجد دنكز ـ أو دكنز فقد نسيت ـ ورضي أن يكون أجره "ليرة" سورية أي مائة قرش سوري، وهي تساوي أحد عشر قرشاً مصرياً.

واضطجعت في المركبة. فسارت بي عشر خطوات ونصف خطوة ووقفت. فسألت "ماذا جرى؟" قال: "هذا جامع دنكز وهذا هو المعهد".

فخطر لي أن لعل المجمع انتقل إلى دار أخرى فترجلت وأنا أتعجب لماذا أبى إخواني إلا أن أحمل في مركبة لأقطع بضع خطوات. أتراهم ظنوني كسيحاً؟ ونظرت فرأيت مسجداً فيه "معهد شرعي "فقلت: يا أخانا إن هذا غير ما أبغي. هذا معهد شرعي وأنا طلبي المجمع العلمي، قال: إنما قالوا لي جامع دنكز وهذا هو الجامع وفيه المعهد، فأنقدته الليرة، وأنا

أحدث نفسي أن روكفلر كان خليقاً أن يتناهى به سوء الحال في الفقر إذا كانت كل عشر خطوات تكلفه ليرة.

واستغنيت عن المركبة وسرت على قدمي إلى سوق الحميدية، ودخلت من حيث أعلم أن المجمع قائم، فإذا به ما زال هناك، ولكن لا أحد به غير بضعة حجارين ينحتون حجارة ويرصفون بعضها إلى بعض في أرض الفناء.

وخفت أن أستقل سيارة أو مركبة، وأنا عائد فيتقاضاني السائق أو الحوذي يجيئون بالمال حتى للكيفية بمجردها؟

ومسحت حذائي فطلب الرجل نصف ليرة أو خمسين قرشاً ــ أي ما يعادل خمسة قروش مصرية ونصف قرش، فصحت به "من تظنني؟" ولكنه أصر فلم يسعني إلا التسليم، وعلمت فيما بعد أنه غلا واشتط، وأنه كان ينبغي أن يكتفي بنصف هذا القدر أي بنحو ثلاثة قروش مصرية. وحتى هذا ليس بالزهيد.

واحتجت إلى مناديل يباع الواحد من أمثالها في مصر بعشرة قروش، أو نحو ذلك، فإذا الثمن هناك أربعة وأربعون قرشاً مصرياً.

وسألت بعضهم "ما أقل مبلغ تقدمه إلى خادم كلفته عملاً؟" قال: "قد يرضى بربع ليرة ولكن يحسن أن تجعلها نصف ليرة" قلت "بل سأعمل بقول القائل: "ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك" ـ على الأقل كلما تيسر ذلك ودخل في الطوق".

وصرت أحس، كلما أخرجت محفظة نقودي أني مليونير، فإن كل حساب لا يكون إلا بمئات القروش. وقد حاولت مساء يوم أن أحصي ما أنفقت في نهاري فدار رأسي فقد بلغ الرقم الآلاف وأنا ما ألفت في مصر إلا الآحاد، وكان يخيل إلي كلما أنفقت ليرة سورية أني أنفقت جنيهاً مصرياً فأقول في سري "يا خبر أسود. سأتسول هنا بعد ساعات. فما العمل؟ ومتى ينتهي هذا المهرجان فنعود مستورين بل متى يبدأ فيذهلني عما أنا مسوق إليه لا محالة من العدم والصعلكة؟

وقد سألني بعضهم عن الحالة المعاشية في مصر فما وسعني إلا أن أقول له "من رأى مصيبة غيره، هانت عليه مصيبته".

غير أني بعد أيام ألفت ذلك فزايلني الفزع والجزع، وأصبحت أغتبط بأن أدفع يدي في جيبي فأخرج حزمة ضخمة

من أوراق النقد وأرمي بالعشرات منها غير عابئ بها أو آسف عليها أو مشفق من عواقب الإسراف. فتا الله ما أسرع ما يتكيف المرء ـ كما يقولون ـ ويألف كل ما كان يستهوله أو يستنكره.

وخرجنا في المساء، بعد العشاء، نتمشى، فكانت ليلة، ولكن هذه حكاية تستحق أن أفرد لها فصلاً قائماً بذاته.

(4)

أي نعم كانت ليلة ولا كالليالي، وخير ما فيها أنها جاءت عفواً على حد قول الشاعر وأحسبه ابن الرومي:

لم يكن ما كان شيئاً يعتمد

بل أموراً وافقت يوم الأحد

سوى أن يومنا كان الخميس ـ أول أيامي في دمشق ـ وكنا ثلاثة أو أربعة وكان رفقائي يتغيرون كلما مضى من الليل هزيع، فيذهب قوم ويجيء قوم، حتى خيل إلي أني كالزمن أو الدنيا يتبدل الناس؛ وتتعاقب الأجيال، وهي كما هي.

وما كدنا نخرج من الفندق ــ فندق (أوريان بالاس)، أو خوام الجديد على الأصح ــ ونسير خطوات حتى وقفت أمام بناء شامخ فسألت الإخوان "البنك السوري؟" قالوا: "نعم" قلت "هنا إذن يكون سامي الشوا قد وقف وبكى وعزف وجمع عليه الخلق".

قالوا "وكيف كان ذلك؟" فرويت لهم الخبر كما حدثني به سامي نفسه. قال إنه قدم دمشق مرة فاستوقفه هذا البناء الضخم، وهو من الحجر الأبيض ولم يكن يعرف أنه البنك السوري، فظنه سجناً، وإن كان قد استغرب أن يقام السجن في قلب المدينة وأحدث أحيائها، ولكنه حدث نفسه أن لعل المقصود العبرة.

وصوب عينيه إلى البدروم ـ أو السرداب كما يسمونه في العراق ـ وإلى نوافذه وعليها قضبان من الحديد، فرأى فتيات كثيرات حسبهن السجينات فرق لهن قلبه الكبير، واغرورقت عيناه بالدمع، وأقبل عليهن ــ أو على النافذة يعرب لهن عن أسفه وعطفه وهو يشهق والدموع على خديه؛ وكانت الفتيات ذكيات خبيثات فأبدين الحزن وتظاهرن بالبكاء فما كان منه إلا أن ارتدَّ يعود إلى الفندق فحمل كمانه وعاد بها إلى

النافذة وأقعى على أطراف قدميه، وراح يعزف لهن ليرفه عنهن فاجتمع عليه خلق كثير وهو ساه لاه لا يرى إلا هؤلاء المسكينات، ولا يعنيه إلا ما هو فيه؛ وأروع ما يكون عزف سامي حين تذهله عاطفة جياشة عمن حوله، وتكاثر الناس حتى سدوا الطريق وعطلوا المرور واحتاج الأمر إلى تدخل الشرطة.

وقد ظل لا يعرف أن هذا ليس سجناً للنساء حتى اجتمع ببعض من رآهن ـ وعزف لهن ـ في ناد من الأندية، فأقبل على إحداهن يسألها متى أفرجوا عنها، فاستغرب الذين كانوا معها فضحكت الفتاة وقصت القصة واعتذرت إليه.

واستأنفنا السير ـــ أو السرى على رأي المتحذلقين ـــ فمررنا بمرقص أو دار لهو فيها غناء ورقص وما أعرفني قط عبأت شيئاً بمثل ذلك، ولكني قرأت على لوح كبير يعترض الطريق ـ فوق الرؤوس ـ اسم "نزهة العراقية" وهي فتاة رأيتها مرة في بغداد في أولى زياراتي للعراق فأعجبت بها، وتوسمت فيها الخير وآنست من حديثها ذكاء القلب ومروءة النفس والإخلاص ولم تخني فراستي فقد سمعت عنها بعد ذلك ما زادني إكباراً لها. وقد أخرجت من العراق وإن كانت تنسب

إليه لأسباب سياسية فلما صارت في الشام لاحقها سوء الحظ أو سوء الظن بنزعاتها السياسية فاعتقلت عاماً ونيفاً. وكان من عجيب تصريف الأقدار لأمور دنيانا، أن ينجو رجال سياسيون من الاعتقال وتقع فنانة؛ لا ينسيها الفن على إخلاصها له، وتخليها لمطالبه؛ وإن لها وطناً وإن كانت لا تنزل إلى ميدان العمل.

وقلت لإخواني "ما رأيكم؟ إني أشتهي أن أدخل وأنظر إلى نزهة، فإن لها في قلبي لنوطة، ليست من العشق والعياذ بالله منه، بل من الإعجاب، وما أظنها تذكرني أو تعرفني حين تراني وما يدريني؟ لعلي أنا أيضاً لا أعرفها إذا رأيتها".

فدخلنا، وكانت مقبلة من وراء المسرح، فغمزوني، وأشاروا إلى ناحيتها بلحظ العين؛ وإذا بها تقف وتحملق، ثم تعدوا إلينا وتتناول كفي وتحييني أجمل تحية، وطالت الوقفة فدعوتها إلى الجلوس فقالت: "نحن هنا في مكة، فلا يؤذن لنا في الجلوس مع الإخوان" وتجهم محياها فسألتها "ولكن لماذا؟" قالت "لأن الفن على ما يظهر، شيء زري محتقر" فغيرت الموضوع وقلت "إني مغتبط برؤيتك، وأتمنى لك كل خير والآن إلى اللقاء إن شاء الله".

وانصرفنا ولم نتلبث، وسأعود إليها مرات أخرى فقد غمرتني بكرمها ومروءتها وطوقتني بما لا يفي به الشكر.

وقال بعضهم "ما قولك في زيارة فخري البارودي؟".

وفخري البارودي هذا أحد نواب دمشق، وصديق قديم لي، وأديب واسع الاطلاع؛ وله شعر يتفكه به ويعبث، وهو فوق ذلك وقبله من أظرف خلق الله ولولا أن أظلم غيره لقلت إنه أظرف الناس قاطبة. وكنت قد سمعت قبل سفري إلى دمشق أنه يكتب بحثاً يثبت فيه أن المعري كان عالماً بالموسيقى، فاشتقت أن أطلع عليه، وإن كنت أعرف أن أبا العلاء أحاط بكل ما كان في زمانه من علوم وفنون وآداب.

وأقلتنا سيارة إلى مكتب اتخذه في زقاق قديم فدخلنا فإذا بستان صغير، وإذا هو متربع في حجرة كبيرة على مقعد عظيم رفيع كأنه العرش، وأمامه منضدة طويلة عليها طوائف شتى من الكتب والدفاتر والأوراق المبعثرة وحوله عدد من رجال الموسيقى يضربون على العود والكمان، وإلى جانبيه طبلة ورق، ينقر على هذا تارة، وتلك تارة أخرى، فسألته ما هذا؟ قال: "يا سيدي هذا لحن صيغ في أبيات للمعري، ونحن

نضبط الآن والعزم أن يعزف في مهرجانه".. قلت "والبحث الذي سمعت به؟".. قال: "فرغت منه، ولكني لن ألقيه لأنه لا يلقى في المهرجان من الأفراد ــ دون ممثلي الهيئات ــ إلا من كانوا أعضاء في المجمع العلمي".. قلت: "خسارة" قال: "وأي خسارة، ولكن شو بدك من...".

وانطلق يسح بما لا يُروى.

وبقينا في سماع وسمر ليس أحلى منهما للصدر أو أطفئ للهم إلى الثانية صباحاً، فانصرفنا وتركناه لألحانه، يسهر فيها الليل كله حتى يتنفس الصبح.

وقلت له وهو يودعنا بالعناق والقبلات "ألا تزل في ضلالك القديم؟.. قال "شو بدك تقول؟" قلت "تحيي كل من تلقى بالعناق والقبل، عسى أن يكون أحد الوجوه صابحاً بضا...".

قال: "يا مازني اتق الله".. قلت "اتق الله أنت يا أخي، إلا تحلق على الأقل فلا تخزنا بهذا الشوك الذي في وجهك؟".

فكر علينا يقول: "يا عيني، يا عيني على الخدود الغضة مثل الحصير".. فانهزمنا..

(5)

كان همي ـ وقد بت في دمشق ـ أن أرى كل ما يتسنى رؤيته في أربعة أيام في دمشق ذاتها، وحولها، وعلى كثب منها قبل أن يبدأ المهرجان فأشغل به عما عداه فزرت من مصايف الشام "الزبداني" و"بلودان" ويبلغ علوها عن سطح البحر نحو 1650 متراً، و"بقين" وفيها عين ماء من أحلى وأطيب وأنفع ما ذقت، وشتورة من مصايف لبنان على الحدود السورية وزحلة المشهورة بمائها و"عرقها".

وكنت أخرج في الصباح فلا أعود إلا ليلاً، ومن أجل هذا سماني أخواني "الزواغ" فإذا سال عني سائل قالوا "زاغ" كالعادة. حتى لقد أشيع في اليوم الثاني من أيام المهرجان أني سافرت إلى "اللاذقية" في أقصى الشمال من سورية فلما رأوني أعود إلى الفندق في مساء اليوم ذاته تعجبوا لي كيف استطعت أن أقطع كل هذه المئات ـ وهي تقرب من الألف ـ من الكيلو مترات ذهاباً وإياباً في نهار واحد، فقلت لهم مازحاً "ألا تعلمون أن عمكم المازني قد أصبح من أهل الخطوة؟".

على أن للإشاعة أصلاً تحور إليه. ذلك أني بعد العشاء ـ في أول أيام المهرجان ـ آثرت الجلوس مع الصديق الكريم

العالم الجليل الأمير مصطفى الشهابي محافظ اللاذقية ـ فقال لي فيما قال إنه عائد من غد إلى اللاذقية ليعد العدة لاستقبال أعضاء المهرجان فيها، واقترح علي أن أصحبه وأبقى معه حتى يلحق بي أخواني فأعود معهم.

وكانت التكاليف الرسمية قد ثقلت علي بعد نهار واحد: وليس أبغض إلي منها؛ فنازعتني نفسي أن أقبل.

فقلت له: "ليس أحب من ذلك ولكن سألقي كلمتي في حلب، فما العمل؟" قال: "نغير الترتيب فتلقيها في اللاذقية".

قلت: "إذن يحسن أن نستشير خليل بك مردم (أمين سر المجمع العلمي).

ففعلنا، فلم يوافق خليل بك، وقال إن حلب خليقة أن تثور إذا نحن فعلنا ذلك. وقد كانت تسأله عني وتستوثق قبل ذلك بدقائق واستشهد بالدكتور أسعد طلس، فأمن على قوله.

فعدلت مرغماً، وكان المقرر أن يزور أعضاء المهرجان في صباح اليوم التالي آثار دمشق، وقد زرتها من قبل، فتخلفت عن مشاركة الإخوان في هذا الطوف وقصدت إلى "بلودان" فكان أن شاع وذاع أني سافرت إلى اللاذقية.

ويحسن بي أن أقول إن وفد مصر ـ حكومتها وجامعتيها ـ كان موضع التكريم والتبجيل؛ وكان أعضاؤه جديرين بكل ما لقوه من حفاوة وإجلال؛ ولو أن الخيار كان لي لما اخترت غيرهم. وقد كنت مزهواً بهم فخوراً بأني منهم وهم مني.

وحدث ونحن نزور في صباح اليوم الأول دار المجلس النيابي أن جلسنا على مقاعد النواب ـ وكان المجلس في إجازة ـ وكنت قريباً من الدكتور طه حسين وليس بيننا إلا ممر ضيق هو الفاصل بين مقاعد اليسار ومقاعد اليمين، فقلت للدكتور طه "هذا حال مقلوب كان ينبغي أن تأخذ مكاني وآخذ مكانك فإني من أهل اليسار".

ونظرت إلى الحائط المواجه لنا فرأيت ساعتين على الجانبين، فأما اليسرى فمعطلة، وأما اليمنى فدائرة تعد الدقائق وتقيد الساعات. فحدثت الدكتور طه بذلك، وقلت يظهر أن ساعة المعارضة معطلة هنا، وضحكنا، وفي هذه اللحظة أقبل بعضهم على الدكتور طه وانحنى عليه وأسر إليه شيئاً. فقال (لا يا حبيبي عليك بالمازني) والتفت إلي وقال (قم يا مازني واشكرهم بكلمتين).

فقلت (أنا؟ يفتح الله يا سيدي إني أولاً لا أحسن هذا الضرب من الكلام وإن كان في ذاته سهلاً، ثم إن صوتي خفيض لا يصلح إلا للمناجاة: وأهم من كل ذلك أنك تمثل هنا حكومة بلادي: فحقك التقديم ولا يجوز غير ذلك) فاقتنع ونهض. وقال خير ما يقال في مثل هذا الموقف.

وانتقلنا من مجلس النواب إلى رياسة مجلس الوزراء، فحيانا رئيس الوزراء بالنيابة ـ لطفي الحفار بك ـ أرق تحية ورحب بنا أجمل ترحيب فرد عليه الدكتور مهدي البصير ـ أحد ممثلي العراق ـ وإذا بمن عرفت فيما بعد أنه الشيخ عبد القادر مبارك ـ من علماء الشام وأعضاء المجمع ـ يصيح من أحد الأركان، مرحِّباً مؤهِّلاً، ويقول في ختام كلمته: إن من دواعي سروره أن سمّي "عبد القادر المازني".

فمال على الدكتور طه وقال (عليك به، فقد وقعت وكان ما كان).. قلت (بل على جدي به، فإنه سمّي جدي لا سميي).

فعاد الدكتور طه يقول (يظهر أن المفاجآت ستكون كثيرة، فما كان هذا كله في البرنامج فيحسن أن تعد خطبتين أو ثلاثاً).

قلت (أما قلت لك أنك تمثل حكومة بلادي فأنت المكلف أن ترد على كل خطيب في كل حفل وكفى الله المؤمنين ـ مثلي ـ القتال).

التقيت بالشيخ مبارك ونحن خارجون فقلت له (يا مولانا شكراً؛ ولكنك سميُّ جدي لا سميي أنا؛ فإن اسمي إبراهيم وأحب أن أبشرك فأعلم أن جدي كان من المعمرين، فعاش إلى ما فوق المائة).

قال (بشرك الله بالخيرات إذن سأكون أنا أيضاً من المعمرين).

وهكذا نجوت من الرد على الخطيب ولم تكن حيلة احتلتها، وإنما كان هذا واجبي، فما يسعني ـ خارج مصر ـ إلا أن أحرص على أن أكون على قدر المستطاع، مثالاً لما ينبغي أن يكون عليه المصري، وعلى أن أعرف حق كل مصري فأؤديه له، وقد كنت مغتبطاً بما يلقاه أخواني من التكريم والتوقير، وكلهم أهل لهذا وزيادة، وكنت في مجالسي الخاصة أزيد القوم تعريفاً بهم وبأقدارهم لا لأنهم غير معروفين، بل لأنه كان يطيب لي أن أرطب لساني بذكرهم. ولم أستغرب حين علمت أني إنما كنت أفعل مثل ما يفعلون

فكان الدكتور طه يسأله عني ويتفقدني في كل مكان. فإذا جئته قال (خفت أن تكون زغت أو ضجرت أو ساءك أمر. خلك معي فإني لا آمن أن تزوغ) فنضحك. وروى لي غير واحد من أهل الشام كيف كان يذكرني بالخير الأستاذ الجليل أحمد أمين بك. وتوثقت الصلة بيني وبين الأستاذ أحمد الشايب بسرعة، ولم أكن قد رأيته من قبل وإن كنت أعرف آثار قلمه وأكبرها. أما الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ عبد الحميد العبادي فصديقان قديمان. جزاهم الله جميعاً خير الجزاء فقد رفعوا قدر مصر وأعلوا شأنها.

أنقذني الدكتور طه بلباقته من ورطة. فقد سألني بعضهم عن حلب ماذا رأيت فيها وكيف وجدتها؟ فقلت بلا تفكير (لم يتسع الوقت لشيء وما رأيت في حلب إلا القلعة القديمة، ومسجد الفردوس الأثري، والسوق المسقوفة المشهورة ثم المحافظ) فظنوها نكتة وتناقلوها، فخفت أن تبلغ المحافظ، وهو رجل فاضل، فيسوؤه مني هذا المزح الثقيل الذي لم أقصد إليه؛ فما كان من الدكتور طه حين بلغه ذلك إلا أن صدهم عن اللغط بهذه الكلمة، وأولها أحسن تأويل فاقتنعوا وأمسكوا.

وما أكثر ما أقال أخواني المصريون من عثراتي وأصلحوا ما فسد بحماقاتي.

كان الاحتفال الذي أقامه المجمع العلمي العربي في البلاد السورية بالذكرى الألفية لمولد المعري ــ بالحساب القمري ــ (مهرجاناً) ولم يكن مؤتمراً أدبياً، وكان الذي خطر له ذلك واقترحه أمين سر المجمع خليل بك مردم الشاعر المشهور. وكان فخامة الرئيس السيد شكري القوتلي هو الذي يسر الأمر كله وأقنع الحكومة السورية بأن تمد المجمع بما يحتاج إليه من النفقة، حتى لقد أعلن أنه مستعد أن يتحمل هو تكاليف المهرجان إذا لم تستطع الحكومة تدبير المال اللازم، وكان من حسن الاتفاق أن اجتمعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي، بالإسكندرية في نفس اليوم الذي بدأ فيه المهرجان، فلهجت الألسنة بذلك، وعد هذا الاتفاق من البشائر المؤذنة بالتوفيق وصار مدعاة (لمظاهرة عربية) بل لقد سمعت بعضهم يقول لصاحبه في الطريق ونحن منصرفون من مقبرة المعري: إن هذا من (كرامات أبي العلاء).

رحم الله الشيخ. كان لا يعدم من يسلكه مع الزنادقة والملاحدة والكافرين فأصبح لا يعدم من يسلكه مع أولياء الله الصالحين.

وكان قبره مهملاً، وعظامه ليست فيه ـ بليت أو نبشت، من يدري، فإن ألف عام حقبة مديدة من الزمن ـ الآن جُدِّد قبره، وسُوِّر المكان وزُرعت الأرض وغرس فيه الشجر، واجتمع عليه أربعة وأربعون من أدباء العالم العربي، وشعرائه وعلمائه يقولون فيه ويبدعون، وجعل له دفتر تدون فيه أسماء زوار الضريح وقد استكتبوني كلمة في هذا الدفتر. كما استكتبوا سواي، فكتبت ما معناه أن أبا العلاء لو كان درياً لما رضي عن زيارتي لقبره، ولكنه لا حيلة لي فيما لعله كان خليقاً أن يكره، فإن يك هذا يسؤوه فإني أرجو أن يكون شفيعي أنه ـ كما يقول:

ما باختياري ميلادي ولا هرمي

ولا حياتي، فهل لي بعد تخييرُ؟

ولو اتسع المقام لزدت أني ما زرت قبراً قط مذ رشدت. وحدثوني ـ وأنا بالمعرة ـ أن مستشرقاً سأل بعض أهلها عن قبر أبي العلاء فنادى الرجل صبياً وقال له: "انطلق بهذا الكافر إلى قبر الزنديق". ووجدت من عامة أهل المعرة من يسمى الشيخ "أبا علي".

وقد تبينا من الحفلة الافتتاحية، أن إلقاء ما أعددنا من بحوث سيكون مشكلاً عويصاً. فإن هذا كما أسلفت، مهرجان لا مؤتمر، والوقت المحدد لكل قائل، نصف ساعة ليس إلا، والجمهور يطلب الكلام المؤثر وكنت قد شاورت إخواني قبل ذلك فأشار الدكتور طه بأن تلقى خلاصات لما أعددنا، وأن ندفع بالبحوث المطولة إلى المجمع للنشر في أوانه، وقد فعل هو ذلك، وفعله أيضاً أحمد أمين بك والأستاذ أحمد الشايب والدكتور عزام، أما أنا فأقبلت على كلمتي أحذف منها وأختصر فما أجداني هذا شيئاً.

وخطر لي أن لعله كان الأوفق أن يُكتفى بحفلة الافتتاح وحفلة الختام، فيحضرهما الجمهور ويصفق فيهما لما يسمع على هواه، وتعقد فيما بينهما جلسات في الصباح والمساء لإلقاء البحوث المطولة على الراغبين في الاستفادة من طلاب الأدب والعلم، غير أني تبينت أثناء المهرجان أن هذا مستحيل فإن لكل مدينة كبيرة من مدن الشام شخصيتها الخاصة وهي حريصة عليها، ضنينة بها والتنافس بينها قائم، فلا معدى عن إقامة حفلات بها كالتي تقام بدمشق. وإلا غضبت وقد فكرت في هذا وعلته. فلما قمنا برحلتنا الطويلة إلى حمص

وحماه وحلب واللاذقية رأيت أن المدن متباعدة، وأن الجبال والسهول تفصلها، والعمران غير متصل بينها، فلا غرابة إذا أحست كل مدينة كبيرة أنها قائمة بذاتها، وأن لها شخصيتها الخاصة التي تتميز بها وتنفرد على خلاف الحال في مصر، فإن اتصال العمران بين المدن ينفي الإحساس بالاستفراد وتميز الشخصية، ويجعل حياة كل بلد في حياة البلد الآخر، أما في الشام فحلب مثلاً هي حلب ودمشق هي دمشق ولكل منهما خصائصها.

روح الشرق

وقد تعجب بعض الأخوان الذين لا يعرفون الديار الشامية ديمقراطية القوم وأدهشهم وراعهم انتفاء التكاليف الرسمية وإيثار البساطة وقلة الاحتفال بمناصب الحكم أو الاغترار بما يصاحبها من جاه وسلطان وأبهة، فإنك تدخل على الوزير كما تدخل على الموظف الصغير، ولا تحتاج إلى أكثر من الاستئذان الواجب حتى بين الأصدقاء، فإذا انتهى العمل رأيت الوزير الكبير والرجل الصغير ــ موظفاً كان أو غير موظف ــ يجلسان ويتسامران كأنهما ندان.

ولا عجب في هذا فإنه روح الشرق العربي كله، لا فرق بين العراق والشام ولبنان وفلسطين، والحجاز ونجد واليمن، بل هي روح الإسلام الذي يجعل أكرم الناس عند الله أتقاهم، وقد عجز الحكم التركي الطويل عن مسخ هذه الروح وتشويهها.

وروح الشام جمهورية بحتة، فهي تسمح بالتحرر من كثير من القيود الرسمية وبإرسال النفس على السجية، غير أن هذا لا يغري بسوء الأدب أو قلة الذوق وليس أحسن أدباً ولا أرق حاشية ولا أحرص على المروءة من أبناء العربية في هذه الديار عامة وفي الشام خاصة. وقد يبلغ الخلاف والتنافس بينهم أشد مبلغ، فلا يورث التقاطع والتدابر، ولا يمنع حسن المواطنة وجمال المعاشرة، ويقسو بعضهم على بعض في النقد، ومع ذلك يأنس بعضهم ببعض ويتلاقون ويتفكهون كأنما الذي بينهم هو الود الصريح والحب المحض وأحسب أن ذلك إنما كان كذلك لأنهم يدركون إدراكاً صحيحاً ما بين الواجب والحق من صلة فلا ينكرون الحق على صاحبه وهم يتقاضونه واجبه، ولا يغلون في نشدان الحقوق ويهملون الواجب، ومن هنا على ما أظن اعتدل الميزان واستقام الأمر.

وسرعان ما يتبين المرء أن أهل الشام أكثر إقبالاً على درس الأدب العربي والتاريخ العربي من غيرهم من أبناء العربية، وما لقيت شاباً هناك إلا وجدته واسع الاطلاع على الأدب والتاريخ ولعل اطلاعهم على الآداب الغربية أقل وأضيق نطاقاً. وعسى أن يكون المصريون من أجل ذلك أرحب أفقاً وأصح إدراكاً لحقيقة معنى الأدب، ولكنه لا شك في أن شبابهم أكثر من شبابنا إحاطة بكنوز العربية وعناية بها، والعربية هي لغتنا فلا مهرب من هذه العناية، وتلك مزية جلية لأبناء الشام.

وقد تجد شبابنا متعجلين يعالجون الشعر بغير آلة، فلا يلقون تشجيعاً ولا يسعهم إلا أن يقصروا ويفيقوا من حلم الشباب الذي أوهمتهم حيويته الدافقة أنهم يقدرون على كل شيء، بآلة أو بغير آلة.

بدأ "العناء" في سبيل أبي العلاء على حد قول الأستاذ الجليل إسعاف بك النشاشيبي من أول يوم من أيام المهرجان فقد دعونا في ظهر ذلك اليوم إلى موائد مثقلة بألوان شتى من الطعام كانت تلوح لنا من بعيد شهية، فنتلمظ ونتمطق قبل الأوان فلما قالوا "تفضلوا" ذهبنا نعدو، وإذا بواحد يشدني من

ذراعي ويقول: "هل تعرف أن هذه أكلة علائية؟" قلت "ماذا تعني؟" قال "كل ما تراه مطبوخ بالزيت ـ حتى الحلوى ـ ولا لحم من أي نوع" قلت "أعوذ بالله".

فسأل "والعمل؟ الزيت لا يوافقني" قلت "وهبه كان يوافقك فأين المعدة التي تحتمل أن تكتظ بهذه العشرات من الألوان المطبوخة بالزيت؟ لا يا سيدي يفتح الله تعال نؤلف حزب معارضة بل ثورة".

وقد كان ـ وصار حزب المعارضة قوامه الأساتذة إسعاف النشاشيبي وطه الراوي وأحمد الشايب والعبد لله واحتللنا طرف مائدة ودعونا عمال الفندق وأمرناهم بلهجة حازمة أن يجيئونا بطعام آخر سائغ ولغط القوم بثورتنا "الموفقة" وحسدونا وزعموا أنها فكاهة ظريفة، وتظاهروا بأنهم لا يبالون بما يحشون به بطونهم من نار. وبعث إلي الأمير مصطفى الشهابي يقول إن هناك إشاعة بأني "سأرقصهم" بخطبة على هذا الطعام، فكتبت إليه أقول أنهم سيحتاجون حقاً إلى من يرقصهم طويلاً بعد هذه الأكلة الشنيعة وأكبر ظني أنهم سيغدون بعدها في عداد الموتى. ويؤسفني أن الله لم يؤتني القدرة على إحياء الموتى.

واعتزمت إذا دعيت إلى الكلام بكرهي أن أشكر طاهي الفندق الذي جاد علينا ببعض ما عنده، وأنقذنا من هذا الهلاك وأن أبرئ المعري المسكين مما توهم هذه الوليمة التي كانت ألوانها تعد بالعشرات ولو كان يأكل كما أكلوا لمات بالتخمة غير أني لم أحتج إلى كلام ما. لأني بعد أن أصبت الكفاية، زغت كالعادة.

وكانت هذه الأكلة بداية المتاعب فقد حملونا في صباح اليوم الثالث في سيارات وضعوا كل أربعة منا في واحدة منها فانطلقنا ننهب الأرض ونقطع 1250 كيلو متراً في ثلاثة أيام وكنا ننام بعد نصف الليل ونستيقظ في بكرة الصباح مع العصافير، ولا نستريح في النهار لأنا لا نكون فيه إلا على سفر، أو على طعام.

صحبة طيبة

وكان من حسن حظي أن كان رفقائي في السيارة الأستاذ ساطع بك الحصري الذي أخرج كتابه الضخم في ابن خلدون ومجموعة نفيسة من المقالات، وهو رجل واسع الاطلاع، كبير العقل، مستقيم النظر، ساحر الحديث.

والأستاذ العالم الجليل الشيخ عبد القادر المغربي، عضو المجمع العلمي بدمشق، والمجمع اللغوي بمصر، والمصريون يعرفونه لأنه أقام بمصر زمناً قبل الحرب الماضية وكان يكتب فصولاً اجتماعية في المؤيد ينحو فيها منحى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. ومن غريب ما حدثني به الأستاذ المغربي في هذه الرحلة، أنه زارني مرة في (البلاغ) ثم انقطع عن زيارتي لأنه قرأ لي فصلاً أشكو فيه من كثرة الزوار فحسب أني أعرض به وأشير إليه، فأقصر فاستعذت بالله من هذا الخاطر.

والأستاذ العالم الأديب عز الدين آل علم الدين التنوخي من أعضاء المجمع العلمي أيضاً، وهو فوق ذلك محدث ظريف، وشاعر لبق، يستطيع أن يرتجل البيت والبيتين في المعاني القريبة يمازح بها إخوانه، وقد قال بيتين يمدحني بهما ونحن نتصعد ونتصوب في الجبال والأودية، وأوردهما على سبيل التسلية:

يحل ما أعضل من أمرنا

بعقله الراجح والوازن

ذاك الذي أعنيه رب الحجى

إبراهيم عبد القادر المازني

فقلت له يا أخي وقاك الله السوء والمسخ والتشويه، ماذا فعلت باسمي عفا الله عنك؟ أنا أحذف الألف التي بعد الراء لأني أحس أنها تفقأ عيني حين أراها، فتجيء أنت فتثبتها وتحذف الألف الأولى؟ سبحان الله العظيم.

قال: "ضرورات الشعر".

قلت: "أكفنا شر هذا الشعر".

وكان ظن أخواني أني غير سعيد بهذه الرفقة، ولكني كنت على خلاف ما توهموا راضياً مغتبطاً، ولو خيرت لما اخترت غير هؤلاء السادة الأجلاء، فإن فيهم من البساطة وخفة الروح وصدق السريرة وسماحة النفس ما يحببهم إلى كل قلب.

وسرعان ما صار كل منا لصاحبه مألفة، فكنا إذا هممنا باستئناف السفر، يبحث كل واحد منا عن أصحابه وينتظرهم ولا يركب حتى يركبوا وكان حديثنا ذا شجون كثيرة. بعضه جد ومعظمه مزح، وكان الأستاذ عز الدين لا يزال يستطرد من كل موضوع إلى ذكر بني معروف ـ وهو منهم ـ وعاداتهم وصفاتهم ومزاياهم وشعرهم فكنا نربكه بالفاكه من أجل ذلك فيصبر على هزلنا أحسن الصبر وجمله حتى يخجلنا بسعة صدره، وحلمه، فنرتد إلى الرفق والملاينة.

ولما صرنا إلى المعرة دعانا الحراكي بك إلى العشاء، وكانت الموائد موقرة بأكثر مما نطيق حمله وبما لا يطمع أشره أكول مبطان أن يلتهم أقله ولما أديرت علينا الفاكهة رأينا تينا أخضر الواحدة منه في حجم البرتقالة الكبيرة وطعمه أحلى من العسل، فقال الأستاذ إسعاف النشاشيبي (آه. الآن وقفنا على سر المعري، وعرفنا لماذا قنع بالتين، فإن ثلاث تينات من هذه وجبة كاملة ولا حاجة بأحد بعدها إلى طعام آخر).

قليل البخت

وخرجنا من المعرة في نحو الساعة العاشرة مساء، فبلغنا حلب عند منتصف الليل، فأوينا إلى مخادعنا على الفور، فأصبحنا فخرجنا للفرجة ثم دعاني أخواني رجال الصحافة في حلب إلى الغداء معهم، وقضينا ساعات في ناد هناك كانت من أطيب ما مر بي في هذه الرحلة وأحلاه، وخرجنا من هناك إلى ساحة مدرسة التجهيز كما تسمى على ما أذكر وكان علي أن ألقي كلمتي فيها فذعرت حين رأيت سعة الساحة فطمأنوني وقالوا أنهم نصبوا مكبراً للصوت ودعوني أول من دعوا إلى الكلام فإذا مكبر الصوت لا يكبر شيئاً لأن به

خلـلاً، فلمـا مللـت الصـياح وبـح صـوتي، قلـت لا فائـدة مـن الاسـتمرار فمـا أظـن أحـداً يسـمعني، ونزلـت عـن المنصـة وبعـد دقيقة أو نحوها قالوا ــ أو زعموا ــ أن الخلل أصلح فعدت إلى الكلام وفي ظني أنهم ما قالوا إلا الحق، فلما فرغت علمت أني إنما كنت أحدث نفسي.

ومن الغريب أن مكبر الصوت صلح حاله واستقام أمره إلى آخر الحفلة، فتذكرت مثلنا العامي (اللي مالوش بخت يلاقي العظم في الكرشه).

نوينا بعد انفضاض المهرجان أن نقضي نهاراً في شتورة وليلة في زحلة، وكان الدكتور بشر فارس لا يزال يلح علي أن أزوره في شتورة وأقضي معه بضعة أيام، فما استطعت أن أختلس أكثر من بضع ساعات من نهار قبل أن يبدأ المهرجان فلما انتهى قلنا نلبي دعوته وننعم بكرمه وأريحيته النهار كله، والمثل يقول "العبد في التفكير والرب في التدبير" وهو مثل أنقله عما أريد به لأقول أننا ركبنا السيارات في الصباح، وانطلقنا على طريق شتورة ـ وهي من أعمال لبنان ـ فلما قطعنا نحو ثلاثين كيلو متراً انعطفت السيارات فدخلت بنا في طريق في الجبل فسألت صاحب السيارة عن الداعي إلى هذا الميل،

فقال إنه مدعو للغذاء عند السيد عبد الحميد دياب من التجار وأعيان بقين، وما كنت رأيت فلاناً هذا إلا مرة واحدة فألح أن نتغدى معه فاعتذرنا بأنا على موعد، ولم يخل سبيلنا إلا بمشقة، ثم أبى له كرمه إلا أن يولم لنا فكان أن حملوني إليه وأنا لا أدري. وإنما ذكرت هذا ليقف القراء على مثال من كرم القوم ولا بأس من مثل آخر أسوقه. فقد خرجت مرة أتعشى وحدي في مطعم سوري فلما دعوت الخادم لأحاسبه قال "مدفوع يا سيدي وأعياني أن أعرف من الذي تفضل فأدى عني الحساب.

وفي شتورة وجدنا الدكتور بشر قد أعد لنا "الشاي" ودعا إليه معنا طائفة متخيرة من كرام اللبنانيين، وكل "شاي" ككل شاي، فلا حاجة إلى كلام فيه، غير أن الدكتور بشر يأبى إلا أن يبتكر.

أو ليس من الجديد في حفلات الشاي أن يكون فيها "فول مدمس" وقد أنضجه الدكتور بشر بيديه الكريمتين زيادة في العناية والتحفّي.

وخرجنا إلى "زحلة" وهي اشهر بلاد لبنان بـ"العرق" المشهور، فجلسنا في مقهى فسيح على نهر البردوني، وكان

مضيفنا هناك الشاعر المشهور الأستاذ عمر أبو ريشة. وكانت قصيدته في مهرجان المعري من خير ما سمعت من الشعر وقد آنست من قصيدته نزعة صوفية، فسألته عن ذلك وكنا في حلب على ما أذكر ـ فقال إن ظني في محله.

وكان من خير ما أكلنا في ليلتنا تلك على النهر "العصافير" وهي سمينة، يقلونها أو يصنعون بها ما لا أدري، ويدسونها في قلب الرغيف حتى لا تبرد، ثم تؤكل بعظمها.

وكان معظم من معنا لبنانيين وكنا نستطرد في الحديث من موضوع إلى موضوع فتناولنا كل شيء جادين وهازلين، فأحسست بعد هذه الجلسة وأمثالها مع إخواننا اللبنانيين أنهم قلقون يرغبون في إيجاد رابطة بين بلادهم والبلاد العربية الأخرى، ولكنهم يحبون أن يحتفظوا باستقلالهم وحدودهم الحالية أدق احتفاظ.

ويخشون أن تؤدي المشاورات العربية إلى ما يمكن أن يتحيف من استقلالهم أو يرد حدودهم عما دخل فيها، ومن أجل هذا أرضاهم وسرهم أن الذين اشتركوا في مباحثات اللجنة التحضيرية آثروا أن يسموا ما اتفقوا عليه "جماعة" من "الدول" العربية.

وقد يحب القارئ أن يقف على السر في كل هذا الحرص على النص على احترام الحدود الحالية. والسر فيما أعلم هو أن لبنان ألحقت به في عهد الانتداب الفرنسي بلدان كانت في الأصل داخلة في سوريا مثل بعلبك وطرابلس وصيدا إلخ.. فلبنان يحب أن يبقى له ما أضيف إليه. وألحق به. ولم تر سورية بأساً من هذا فاعترفت بالحدود القائمة.

أما فيما عدا ذلك فالأمر بين سوريا ولبنان يجري كأنهما بلد واحد والتعاون قائم على خير وجه، ولا فرق بين لبناني وسوري، فمعظم موظفي البنك السوري اللبناني وموظفاته في دمشق وغيرها من بلاد سورية من اللبنانيين واللبنانيات، وكثير من البنى التي في بيروت يملكها سوريون. وأهل سورية يصطافون في جبال لبنان الجميلة، وإن كانوا قد بدأوا يعنون بمصايفهم الخاصة، وقمح سورية وسمنها تمد بهم لبنان، كما يمد لبنان سورية بما فيه من فاكهة وزيت وعرق إلى آخر ذلك.

وقد كنت وأنا في الشام أتوقع أن تنتهي المشاورات بما يزيل مخاوف إخواننا وكنت أؤكد لهم أن الأمر لا يمكن أن يكون إلا على ما يحبون وأبين لهم أن مصر نفسها حريصة

كحرصهم على كيانها الخاص واستقلالها بأمورها واحترام حدودها، وكذلك الدولة السعودية والعراق، وليس ثم طمع من دولة في أخرى، وإنما المراد إيجاد وسيلة أو أداة يتسنى بها التعاون والتكافل. وحسبنا جميعاً ذلك.

وقد صدق ظني ولله الحمد.

ليس أعجب من أن يطالب صحفي بالإدلاء بحديث إلى صحفي آخر. غير أن هذا الذي أراه عجيباً كان يبدو غير عجيب لبعض الصحفيين الشباب في دمشق، وقد ألحف أحدهم في المسألة وأنا أحاول أن أصرفه بلطف، فلما أعياني أمره قلت: سل ما بدا لك، فرماني بطائفة من الأسئلة تتطلب بحثاً طويلاً ونظراً ومراجعة. مثل: كيف تركت الحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في مصر؟ وما رأيك في حل قضية فلسطين، إلى نظائر كثيرة لهذه الأسئلة المحرجة وقد هربت من كل جواب بكلام يضحك حمله هو على محمل الجد فذهب به فرحاً إلى مدير شركة الأنباء التي يعمل فيها، ثم عاد إلي.. من غده يعاتبني ويقول إني جعلته غرض استهزاء. فقلت له يا أخي وما ذنبي إذا كنت تأبى إلا إحراجي بأسئلة لا أستطيع الجواب عنها هنا، وصرنا بعد ذلك صديقين وغفر لي

إساءتي إليه، وزاد فتفضل بتعريفي بزعيم الحزب الشيوعي هناك وزعيم الشيوعية هذا شاب مديد القامة عريض الألواح واسع العينين براقهما حديد الفؤاد فصيح وقد سألني عن الشيوعية ما رأيي فيها فقلت له "منك نستفيد، فما أعرف عنها شيئاً فشرع يعرفني بها فقلت له اسمع "إن كنت تطمع في إلحاقي بحزبك فخير لك أن تقصر فقد جريت في حياتي على قاعدة لم أتحول عنها قط، هي أن لا أتقيد بحزب أو مذهب، وإنما آخذ من كل مذهب أطيبه وأنفعه" فكف.

وصرت بعد ذلك كلما دخلت غرفتي وجدت فيها كوماً من النشرات والمطبوعات والرسائل عن روسيا والشيوعية، وقد احتفظت منها برسالة واحدة رأيتها نافعة لما فيها من البيان، وأهملت ما عداها.

وكان قد زارنا في دمشق وفد من شبابها، وكان ذلك قبل المهرجان على ما أذكر، وكنا نتعشى، فأشفقت أن نقضي الليل في الإصغاء إلى خطب لا طائل تحتها، والرد عليها، وحاولت أن أزوغ، ولكن رسولهم إلينا كان كأنه موكل بي، فسدت يقظته الشيطانية كل فج.

وكانوا عشرين أو نحو ذلك، فجلسنا معهم في حلقة وقلنا تفضلوا فقد أعرناكم آذاننا، فإذا هم لا يريدون خطباً ولا يبغون كلاماً فارغاً، وإنما يريدون أن يسألونا عن الوسيلة العملية لتيسير الاطلاع والحصول على الكتب والمجلات العلمية.

وقد ذكروا لنا أموراً أدهشتنا. ذلك أن المجلة المصرية التي تباع هنا بقرشين تباع في الشام بخمسة وعشرين قرشاً سورياً أو خمسة وثلاثين. والكتاب الذي ثمنه في مصر عشرون قرشاً يرتفع ثمنه هناك إلى ثلاثمائة قرش أو أربعمائة. وغير منكور أو مردود أن هذه أثمان تعجز الطالب المتوسط الحال عن اقتناء الكتب أو المجلات المصرية، وتضطره إلى الاكتفاء بالأقل أو الأرخص. وتلك خسارة عليه وعلى الكتاب المصريين والصحافة المصرية فما حل هذا المشكل؟.

وقد عرفت فيما بعد أن بعض كتبنا ـ وثمنه في مصر قروش عشرون أو خمسة وعشرون ـ قد بيع بما يعادل ديناراً. ولعل هذا إنما كان لقلة ما ذهب من نسخه إلى الشام، أو لعظم قيمة الكتاب أو للسببين معاً.

ولم أر صحفاً مصرية وأنا هناك إلا في الندرة القليلة، وكنت لا أعرف مواعيد وصولها، وكان الذي يصل يخطف خطفاً فلا يبقى منه شيء بعد دقائق. فاكتفيت بالصحف المحلية، وفيها الكفاية للمقيم هناك، ولكنها لا تكفي من يريد الوقوف على أخبار مصر كما اعتاد أن يقرأها كل صباح ومساء بالتفصيل الوافي.

ومثل هذا يشكو منه السوريون ـ واللبنانيون أيضاً ـ فإن كتبهم وصحفهم ومجلاتهم لا تباع في مصر ولا تعرض في مكتباتها ولا يطلع عليها إلا من يتلقونها بالبريد على سبيل الهدية.

وقد قلت لمن حادثتهم في ذلك إني أستغرب أن يعجز السوريون واللبنانيون عن تنظيم النشر لكتبهم وصحفهم في مصر وهم من أنشط الشعوب وأحذقهم وأقدرهم على تولي مثل هذه الأمور، وجاليتهم في مصر كبيرة قوية، وإن كان كثيرون من أفرادها قد تمصروا وانتهى الأمر.

وأحسب أن هذا حال لا يُرضي أحداً لا من المصريين ولا من السوريين واللبنانيين فإن بنا جميعاً حاجة إلى تنظيم التبادل وتوسيع نطاقه.

وقد كنت أشرت قبل هذه الحرب على بعض ذوي النفوذ والجاه في مصر أن يسعى لتأليف شركة قوية للنشر برأس مال كبير تجري في أعمالها على النهج المألوف في شركات النشر الإنجليزية، وأكدت له أنها تجارة رابحة على التحقيق وأن كل ما تتطلبه هو تنظيم الأسواق في البلدان العربية، فلم يصنع شيئاً لأنه شغل عن هذا الأمر بما كان يومئذ أولى بعنايته.

والحاجة إلى هذا التنظيم في مصر ذاتها عظيمة، وأذكر أني طبعت في سنة 1930 كتاباً على نفقتي، وكنت أخشى يومئذ أن أكون قد أسرفت فقد طبعت منه أربعة آلاف نسخة، ولكن التكاليف كانت هينة، فلا محل للخوف من خسارة تصيبني. على أن الكتاب نفد في وقت وجيز، وكان أغرب ما حدث بعد ذلك أن جاءني كتاب من الإسكندرية يقول فيه صاحبه أنه سمع أني أخرجت كتاباً اسمه كذا، ومعنى هذا أن الكتاب الذي بيع في القاهرة والحجاز وجاوه لم يسمع به أحد في الإسكندرية العاصمة الثانية لمصر.

والحقيقة أن تنظيم أسواق الكتب في مصر والبلاد العربية يفسح المجال لتنشيط التأليف.

والتنظيم هو كل شيء. وسبيله أن تقوم شركة كما أسلفت، وتوفد مندوبين إلى البلاد العربية يعقدون اتفاقات مع المكتبات المختلفة ودور النشر الأخرى والصحف للإعلان والنقد، حتى إذا تم ذلك وصار قائماً على قاعدة عملية وطيدة اتفقت الشركة مع المؤلفين والمترجمين على اختلافهم في مصر وفي الأقطار الأخرى، ثم لا تترك أمر النقد وما إليه للمصادفة، بل تدفع الكتب المختلفة إلى النقاد وتستكتبهم آراءهم النزيهة فيها وتجزيهم على تعبهم في ذلك تجزية كافية وتأخذ هي ما يكتبون فتبعث به إلى الصحف لنشره بأجره في أيام معينة، وتكون قبل ذلك قد وزعت الكتب على المكتبات جميعاً في مصر وغيرها، حتى إذا ظهر الإعلان والنقد وجد الجمهور الكتب معروضة فأقبل عليها يقتنيها. وهذه الطريقة أصابت نجاحاً غير قليل، وأصبحت الكتب الإنكليزية تُعرض في أيام معدودات، وأن يعاد طبعها مرات، فيربح المؤلف ما يكفيه ويشجعه على التفرغ لفنه أو علمه أو بابه على العموم وينتفع الجمهور ولا نحتاج أن نقول أن الشركة تربح ربحاً وفيراً.

وقد جربت طائفة من المكتبات المصرية هذه الطريقة فأصابت نجاحاً غير قليل، وأصبحت تسمى نفسها دوراً

للنشر، ووسعها أن تتوسع فتخرج من بعض الكتب خمسة عشر ألف نسخة وليس ثم ما يمنع أن يرتفع الرقم إلى ثلاثين ألفاً أو أربعين. فإن القراء موجودون. وكل ما يحتاجون إليه هو أن يسمعوا بالكتب ويعرفوا أين يجدونها من غير عناء.

ومعظم القراء يحتاجون إلى ما يغريهم باقتناء الكتب ويحضهم على طلبها ويسهل عليهم الحصول عليها، ومعذور من يزهد في ذلك أو ينصرف عنه إذا كان لا يعرف أن كتاباً من الكتب صدر، أو أين يجده في غير مشقة، أو ماذا فيه مما يدعوه إلى الحرص على اقتنائه. فالتيسير واجب. وإذا قلنا التيسير فقد قلنا التنظيم، وبه يتسنى النشر في أوسع نطاق في البلاد العربية كلها، ويسهل التبادل بينها ويتفرغ حملة الأقلام لما يحسنون، ويتاح للنقد أن يرتقي، وتنتفع الصحافة بما ينشر فيها إعلاناً ونقداً.

كانت مأدبة العشاء التي أقامها فخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية في ختام ليالي المهرجان، مظهراً لروح سورية الحقيقي، وهو جمهوري صميم، وقد حملنا إلى قصر الرياضة في سيارات لا ندري من أين جيء بها ولا من هو الذي كان يتولى أمر إعدادها وقد فاتني أن أكون

في السيارة التي أقلتني إلى القصر وعادت بي منه. زملائي في الرحلة الطويلة إلى شمال سورية ـ ساطع الحصري بك، والشيخ المغربي والأستاذ عز الدين التنوخي وكنت ضنيناً بهم، حريصاً على صحبتهم، معتزاً برفقتهم ـ ولكن العوض كان جزيلاً، فرافقت في الذهاب والإياب الأستاذ إسعاف النشاشيبي والأستاذ أحمد الشايب.

والقصر الجمهوري دار صغيرة فيها من السلطة أكثر مما فيها من الأبهة، وعلى أبوابها وفي مداخلها، حرس وشرطه، ولكنك تحس وأنت داخل أن هؤلاء إنما يقفون لتحيتك والترحيب بك لا لحراسة أحد، فكأنهم بعض ما تزان به المآدب والحفلات مبالغة في التحفي. ومن يحرسون؟ وممن يتحرزون! إن رئيس الجمهورية من الشعب والشعب منه، وما كان راغباً في هذا المنصب ولا طالباً أو ساعياً، وإنما كانت رغبته وسعيه أن يكون الرئيس الأسبق هاشم بك الأتاسي على رأس الجمهورية، ولكن هاشم أبى كل الإباء وأصر على أن هذا الأمر ليس له سوى شكري بك، ولو بقي الأمر لاختيار شكري بك لما تولى شيئاً لا من الرياسة ولا من الوزارة.

والواقع أن مناصب الحكم لم تعد شيئاً في سورية، فليس عليها تنافس، ولا في سبيلها تثور الخصومة وتضطرم العداوة وتنشق الصفوف وتفتق الكلمة. وقد زرنا حمص في أوبتنا من رحلة الشمال، وقصدنا إلى دار السيد هاشم الأتاسي الرئيس الأسبق لتحيته، ثم تغدينا في بستان البلدية فعرفت أتاسياً آخر هو أخو الأول، تقلد منصب الوزارة مرة من قبل، ولو شاء لتقلد رياستها الآن وبعد الآن، فإن منزلته وأسرته وثقافته وهمته تؤهله لما يجب ولكنه يشيح عن ذلك كله إشاحة المستخف، ويؤثر أن يكون رئيس بلدية حمص.

وعلى هذا فقس.

واستقبلنا فخامة الرئيس في القاعة الكبرى ـ وإنما توصف بالكبرى بالقياس إلى غيرها ـ وكان يتنقل بين هذا الرهط العظيم المحشود ويقف مع كل فريق لحظات يتحدث ويلاطف ويجامل. ثم قيل اهبطوا فهبطنا إلى الحديقة ـ وهي واسعة ـ حيث صفت الموائد فقعدنا حيث طاب لنا أن نقعد، ولكن الرئيس أبى إلا أن يحف به المصريون فأدنانا منه وجعلنا على جانبيه وأمامه، في غير كلفة، واختص الأستاذ إسعاف بك النشاشيبي بتكريمه فألح عليه أن يكون أمامه، وجعل

يقول إن إسعاف بك أستاذه، وإنه قضى في القدس عام كذا نحو عامين فكان يزور الأستاذ إسعاف كل ليلة في داره فيستفيد منه أدباً وعلماً.

وخيل إلي، وأنا أراعي الأستاذ إسعاف، إنه يقول في سره "يا أرض ابلعيني" من فرط الحياء، فقد اضطرم وجهه فصار كالطماطم الناضج، وراح رأسه يهتز يمنة ويسرة، فضحكت في سري ـ أنا أيضاً ـ إذ تذكرت واحداً من أصدقائنا القدماء، عليه السلام، كان لا ينفك كلما تعجب أو أنكر شيئاً يهز رأسه على هذا النحو، وكان المرحوم السباعي يشبه رأسه في اهتزازه هذا برأس الأرنب المصنوع من "الجبس".

وأكبرت في فخامة السيد شكري القوتلي هذا التواضع، وذلك الإقرار العلني بفضل لا يلزمه شكره، وأكبرت من إسعاف بك تطامنه واستحياءه. على فضله وغزارة علمه مما فيه من لا يستحي خير.

ولكن الأستاذ إسعاف ذرب اللسان حاضر البديهة، سريع الخاطر، يتكلم فكأنه يقرأ في كتاب فما لبث أن تغلب على حيائه فانطلق يسح سحاً بوصف فضائل الرئيس ومزاياه. والرئيس يستوقفه ويستغفر الله، ولكن من ذا يصد

السيل المنهمر؟ وانقلب الوضع، وانعكست الآية وصار الرئيس هو المطرق حياء، وهو الذي يحاول أن يبدو للناظرين كأن غيره هو المعنى بهذا المديح، فيعبث بالشوكة تارة، ويفرك لباب الخبز طوراً ويلتفت وراءه حيناً، ويتناول سيجارة ليشعلها ثم يفردها.

وما كدنا نفرغ من الطعام. ونتهيأ للقيام فقد كان المقرر أن نعفي من الخطب ـ حتى رأينا شيخاً يغادر مكانه ويقبل فيقف قبله الرئيس كأنه ينتظر الأذن، فينظر إليه الرئيس ملياً ثم يأبى له الأدب أن يرده، فيقول "تفضل".

وقد استغربت ما سمعت، فما كان هذا مقامه، ورأيت الرئيس يلتفت إلى الأستاذ أحمد أمين بك وسمعته يقول "ما رأيك" فلم يجب الأستاذ ولكنه نهض بعد أن فرغ صاحبنا فقال كلاماً حسناً يعد رداً على ما سمعنا وتعجبنا له، فأنقذ الموقف.

وصار الواجب بعد ذلك أن يقول أحدنا كلمة شكر، فقالها الدكتور طه" جزاه الله خيراً. وأحسن كل الإحسان، وأثنى أطيب الثناء على وزير المعارف نصوح بك البخاري الذي لم يفارقنا لحظة واحدة في أسبوع المهرجان، وكان لا يفتر في رعايته لنا. ولا يقصر في تعهدنا وبرنا.

وقد جاءني معاليه بعد أن نهضنا عن الموائد وتفرقنا في الحديقة وشكا إلى أن الدكتور طه بالغ وأسرف، فقلت له يا سيدي الدكتور طه إنما عبر عما نطوي جميعاً لك من الحب والإجلال والشكران، ولو لم يشكرك طه، لشكرتك أنا ولكنت أشد منه إسرافاً، وما أراه قصر في حقك، فقال أنت شر منه ومضى عني، وهو أشد ما يكون استحياء.

وكان الأستاذ نجيب الريس ـ الأديب الشاعر وصاحب جريدة (القبس)، قد كتب مقالاً عنيفاً ينتقد فيه محافظ دمشق واتفق أن جلس المحافظ في مأدبة الرئيس وبجانبه الأستاذ نصوح بابيل نقيب الصحفيين وصاحب جريدة (الأيام) فشكا إليه المحافظ ما قال فيه نجيب، فما كان من نصوح إلا أن قال أنه يوافق زميله على كل حرف خطه. فسرني هذا التضامن بين الزملاء وتمنيت أن يكون هذا حالنا في مصر.

وسمعت أعجب حوار وأمتعه ونحن نعود إلى الفندق. وكان السائق ينهب الأرض والأستاذ إسعاف يكره السرعة فأستمهل السائق، فقال هذا (أولسنا على الأرض؟ فماذا تخاف؟) فقال الأستاذ إسعاف ولكن الله يأمرنا ألا نلقي بأنفسنا في التهلكة، فرد عليه السائق بأن المكتوب على

الجبين لازم تشوفه العين، فصاح به الأستاذ (ويحك، أقول لك القرآن ينهى عن هذا فتحجج علي بعبد الوهاب؟).

فأصر السائق على الاحتجاج بمواويل عبد الوهاب، ولج الأستاذ في الاحتجاج عليه بالقرآن والحديث، ثم رأى السائق يزيد على السرعة وأنه يتلفت يمنة ويسرة فخاف العاقبة، ولكنه آثر المزح فارتجل حكمة تقول، أو يقول هو فيها: إذا ركبتم الخيل فلا تتلفتوا ذات اليمين وذات الشمال. فكان جواب السائق إن العرب لم يعرفوا السيارة وظللنا نستمع إلى هذا الحوار اللذيذ حتى بلغنا الفندق بسلام، فكان الختام مسكاً.

لقد كان العزم أن أرجئ حكاية منعي من دخول فلسطين إلى أوانها. ولكن جريدة المقطم الغراء ـ جزاها الله خيراً ـ تفضلت بكلمة طيبة مشكورة في الموضوع أعربت فيها عن كريم عطفها علي واستنكارها لما وقع لي، فوجب أن أبسط الأمر للقراء فإن فيه لعبرة.

كانت محطة الشرق الأدنى ممثلة في المهرجان فخاطبني مندوبها الفاضل في أن أذهب إلى يافا وأذيع حديثاً أدبياً أو حديثين، فترددت لأني كنت معتزماً أن أعود بالطائرة في يوم

الخميس الخامس من أكتوبر، ولكنه أقنعني وقال إن في وسعي أن أسجل الأحاديث في يافا وأستقل الطائرة من اللد، فاتفقنا على أن أسافر إلى فلسطين في الثاني من أكتوبر وأتفق على مثل ذلك مع زملائي الأساتذة الأجلاء أحمد أمين بك والدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الحميد العبادي وأحمد الشايب والدكتور أسعد طلس، غير أن موعد السفر تأخر إلى يوم الأربعاء لرغبة الأستاذ أحمد أمين بك في الاستراحة يومين بعد المهرجان.

وخرجنا جميعاً من دمشق ضحى الأربعاء في سيارتين، إلى القنيطرة ومنها إلى الحدود بين الشام وفلسطين عند نقطة تسمى "جسر بنات يعقوب". وقد دفع إلينا الأستاذ أحمدي بابيل قبل سفرنا كتاب توصية إلى ضباط الحدود يعرفهم بنا، إننا ذاهبون إلى يافا ضيوفاً على محطة الشرق الأدنى لإذاعة أحاديث أدبية منها.

وخرجنا من سورية وبلغنا نقطة البوليس على حدود فلسطين، فخرج لنا ضابط إنجليزي دفعنا إليه الجوازات وأبرزت له كتاب التوصية فقرأه وابتسم وأعاده إلى وقال "خله معك فقد ينفعكم" وختم الجواز بإذن الدخول بعد أن دعاني

إليه وألقى علي بعض أسئلة ـ لأني صحفي، والصحفيون على ما يظهر غير مرغوب فيهم، ولكنه لم يثقل واكتفى بالأسئلة وأجوبتها، ثم ودعنا بلطف وتمنى لنا رحلة سعيدة. فانطلقنا حتى بلغنا نقط الجمارك، وفيها مكتب لرجال الأمن العام فأبرزت كتاب التوصية مرة أخرى للضابط فأخذه مع الجوازات وارتد إلى غرفته. وبعد دقائق أعيدت جوازات زملائي إليهم، ودعيت أنا إلى مكتب هذا الضابط، فضحكنا، وقلت هذه آفة الصحافة.

وجلست أمام الضابط فسألني عن مسقط رأسي، وعن أبي وأمي، فقلت له مازحاً ـ إنني الآن لا أب ولا أم. فقد ماتا رحمهما الله.

ونظر في كتاب التوصية ثم في الجواز ثم قال إن اسمك في كتاب التوصية "عبد القادر".

فأدركت أنه يلتمس حجة يردني بها فقلت له "يا سيدي، إني غير مسؤول عن كتاب التوصية ومعظم الناس يختصرون الأمر، ويهملون اسمي الأول، على أنك تستطيع أن ترمي كتاب التوصية في السلة أو تهمله، وحسبك الجواز وفيه اسمي كاملاً، وصورتي، وهذا وجهي أمامك".

فانتقل من ذلك إلى مناقشتي في هجاء اسم "المازني" بالإنجليزية في الجواز فأدركت أنه ليس بالإنجليزي وإن كان يجيد الإنجليزية وبينت له أنه مكتوب كما ينطقه الناس عادة.

ثم قلت له "اسمع من فضلك. إنه يستوي عندي أن تأذن لي في الدخول أو تمنعني منه، ولكن رجائي إليك أن لا تطيل وتضيع الوقت، فإن إخواني لا يستطيعون أن يستأنفوا السفر إلا إذا عرفوا مصيري، فلا تجعلني سبباً في أتعابهم.

فقال إنها مسألة دقائق ليس إلا، فانصرفت، ولكن الدقائق صارت ساعتين وزيادة وكنا نجلس في السيارات تارة، ونتمشى تارة أخرى ولا راحة في الحالتين. وقلت لإخواني أكبر ظني أني مردود عن فلسطين، قال الأستاذ أحمد أمين بك "إذن لا إذاعة، ونسافر إلى مصر دون أن نعرج على محطة يافا" فوافقه بقية الإخوان وقال الدكتور طلس "وأعود أنا معك إلى الشام" فحاولت أن أثنيهم عن الإضراب عن الإذاعة أو أثني الدكتور طلس عن الأوبة معي فأبوا كل الإباء. واتفقنا على اقتسام السيارتين، فيأخذ إخواني واحدة، وأعود أنا مع الدكتور طلس بالأخرى.

وأخيراً خرج علينا الضابط وقال لي إنه شديد الأسف، وأن القدس أبت أن تأذن لي في دخول فلسطين، وأنه يأسف مرة أخرى لأنه ليس عنده ما يركبنيه في عودتي إلى الشام.

فطمأنته وقلت له "لا تخف علي، ولا تحزن، فإن معي سيارة".

فاطمأن وأظهر السرور، وأراد أن يلقي علي أسئلة أخرى فقلت له "أما بعد رفض الدخول فلا سؤال ولا جواب وما شأنك بي وقد رددتني عن البلاد؟".

وهكذا رجعت مع الصديق الكريم الدكتور أسعد طلس.

ولما بلغنا الحدود الأولى استغرب الضابط الإنجليزي لأنه كان قد أذن لي في الدخول. وسألني مازحاً "أتراك ارتكبت جريمة؟" قلت "ليتني فعلت. إذن لعرفت السبب".

وصار الأمر مشكلاً، لأن تأشيرة الدخول في سورية انتهت بخروجي منها غير أن موظفي الحدود السورية كانوا من أظرف خلق الله وأرقهم فأعربوا عن عطفهم وأسفهم، وألغوا "تأشيرة" الخروج، وأرادوا أن يحتفوا بنا ويكرمونا فاعتذرنا بضيق الوقت وبعد الشقة، واستأنفنا السير فدخلنا

دمشق في منتصف الساعة التاسعة ليلاً، فإذا أمامي مشكل آخر: هو أن الفنادق كلها غصت بالنواب الذين جاؤوا من أرجاء الشام لحضور جلسة البرلمان في صباح اليوم التالي. فأين أبيت؟ وعلم الأستاذ الجليل إسعاف بك بهذا المشكل، فهمس في أذني أن بغرفته سريراً ثانياً لا ينام عليه أحد، وأن هذا يحل الأشكال إلى الغد. فهممت بالاعتذار لأني أعلم أن الأستاذ إسعاف لا يطيق أن ينام معه في غرفته مخلوق فكيف أنغص عليه رقاده؟ وأنا مثله أوثر النوم وحدي ولكنه لم يكن لي مفر من قبول ما تفضل به مشكوراً.

وتشهدت، وقلت آكل لقمة، فما طعمنا في نهارنا شيئاً يذكر، وإذا بخادم الفندق يسألني عن حقيبتي أين هي ليحملها إلى حجرة إسعاف بك، فأخبرته أنها في السيارة. ولكن السائق كان قد ذهب بالسيارة ـ لا أدري إلى أين ـ ونسي أن يترك لي شيئاً، ولا أحتاج أن أقول أنا وجدناه وأنه رد الحقيبة معتذراً من سهوه.

وفي صباح اليوم التالي ـ الخميس ـ علمت أن المشكل أعقد مما كنت أظن، فقد كنت واثقاً أني أستطيع العودة إلى مصر بالطائرة، وكل ما أحتاج إليه هو الانتظار حتى أجد

مكاناً في طائرة عائدة ولكن الدكتور طلس زار القنصلية ومعه جوازي ليسأل هل به حاجة إلى "تأشيرة" جديدة؟ فكان الجواب المزعج أني ممنوع من اجتياز فلسطين براً وجواً لأن الأمن العام في فلسطين، فرجوت منها أن تتريث حتى نرى أأقطع البحر الأبيض سباحة؟ وخطر لي أن الحل الوحيد ـ إذا أخفقت المساعي الكثيرة التي بذلتها الحكومة السورية ـ هو أن أذهب إلى العراق ومن ثم إلى نجد فالحجاز فمصر، فأعود على الأرجح مع الحجاج.

وقد كان القنصل الإنجليزي كريماً غاية الكرم، فأرسل برقية إلى القدس وأردفها برسالة مستعجلة ولكنه لم يتلق جواباً قط، وكان كل امرئ في دمشق معنياً بي، وبتهوين الأمر علي، وسرني على الخصوص قول فخامة الرئيس حفظه الله أنه سيكلّف الحكومة أن تكتب رسمياً إلى حكومة فلسطين تشكر لها أنها ردت المازني إلى الشام.

وهمت صحافة دمشق بحملة على حكومة فلسطين، فرجوت منها أن تتريث حتى نرى نتيجة المساعي المبذولة من جانب الحكومة السورية وجانب القنصل البريطاني.

وحاولت الاتصال بمصر مراراً فلم أفلح، وبعثت ببرقيات شتى إلى البلاغ وإلى بيتي بتوقيع الدكتور أسعد طلس وغيره من السوريين فلم يصل منها شيء إلى اليوم. ولم أبعثها باسمي لأن جوازي كان في القنصلية البريطانية والبرقيات لا تقبل من الغريب إلا إذا أبرز مرسلها جوازه كما تقضي بذلك الأوامر العسكرية.

وكنت قد مرضت فلزمت غرفتي فتفضل الكولونيل مارساك وزارني وأنبأني أنه مسافر إلى مصر صباح السبت عل طائرة إنجليزية لا تنزل في فلسطين وتمنى أن تسمح له صحتي بالسفر معه وسألني عما يستطيع أن يفعله لي في مصر، فأكدت له أني أستطيع السفر الآن على الرغم من المرض، ورجوت منه إذا تعذر سفري أن يتصل بجريدة (البلاغ) ويخبرها الخبر.

وكان يجس يدي كل بضع دقائق، فأحسست أنه يفعل ذلك لأمر يكتمه، ولم يكذب ظني، ففي صباح اليوم التالي زالت عني الحمى، فارتديت ثيابي وإذا بي أدعى إلى مكتب شركة الطيران البريطانية وهناك علمت أن مكاناً حجز لي بفضل القنصل البريطاني والكولونيل مارساك على طائرة

إنجليزيـة قادمـة مـن طهـران وذاهبـة إلى مصـر دون توقـف في فلسطين. وهكذا عدت فجأة، وعلى غير انتظار بعد أن كاد عزمي يستقر على السفر إلى بغداد فنجد فالحجاز.

كلمة الأديب إبراهيم عبد القادر المازني
في
ألفية أبي العلاء المعري

قيل إن علة العلل هي عماه. وإن هذه المحنة هي التي حملته على التزهد وإيثار العزلة. ورياضة النفس على الكفاف. وأن آفته هذه هي مفتاح شخصيته فلا سبيل إلى فهم المعري على حقيقته إلا إذا رددنا كل عمل أو قول له إلى هذه المصيبة التي أصابته في طفولته لغير ذنب جناه.

وغير مردود ولا منكور أن ذهاب البصر محنة. ولا سبيل إلى الشك في أن المكفوف لا يسعه إلا أن يشعر بما حاق به من المكروه وما حرم عن المزية. وإلا أن يألم ويأسف ويتحسر ويتلهف وإن أظهر الجلد وأبدى التشدد. ولا يمكن أن تخلو

خسارة هذه الجارحة النفسية من أثر عميق في نفس المرء وتفكيره واتجاه عقله ونوع إحساسه بالحياة والناس.

كل هذا مسلم لا خلاف عليه. فما يستوي أن تكون أولا تكون للإنسان هذه الجارحة وإلا كان خلقها عبثاً. وتزايداً لا داعي له. ولكني لا أرى رأي القائلين برد كل شيء إلى فقدانها. ولا أنها مفتاح شخصية المعري. فليس من الحتم أن يحدث ذهاب البصر هذا الأثر. وقد عمي بشار جنيناً ولم ير ضوء النهار وتحسر وتألم. ونقم وسخط. ولكنه لا تزهد ولا اعتزل. بل نزل إلى المعترك. وخاض الغمار. وضرب في الزحمة. وروى بيرك الأديب الإنجليزي المشهور في كتابه "الجليل والجميل" إنه يعرف عالماً أعمى كان أستاذاً لعلم الضوء في الجامعة. وهو قد ولد مكفوفاً. وقرأت منذ شهور كتاباً اسمه "العالم تحت أناملي" لكاتب أمريكي حديث اسمه "كارستن أونستاد" ذهب بصره وهو طالب في مدرسة عالية. أي بعد أن متع بنعمة البصر نحو عشرين عاماً، فالخسارة أفدح والحرمان أوجع. وقد ترجم في هذا الكتاب لحياته. ووصف ما كان من أمره بعد هذه المحنة. وكيف غالبها فغلبها. وهو لا يعتمد إلا على العصا ولا يحتاج إلى من يأخذ بيده ويقوده ولا يرضيه إلا

أن يعامله الناس كأن ليس بينه وبينهم فرق. فلا هو أعمى ولا هم بصراء دونه. وكيف كان يشارك الطلبة في ألعابهم ومغامراتهم حتى الزحلقة على الثلج في الجبال.

حس مرهف

وعندي أن ذهاب البصر لا يورث صاحبه ما عزوه في المعري إليه إلا إذا اجتمع أمران على الخصوص: حس مرهف دقيق في المكفوف، ومجتمع لا يزال يشعره أنه مكفوف كان يبدي العطف عليه. أو يتعجب لما يكون منه مما يعد مستعصياً أو مستكثراً على مثله. وأحسب أن عامل المجتمع أقوى الاثنين. فإذا تلقى الناس الكفيف على نحو طبيعي. وعاملوه كأنه مثلهم بلا فرق. ونزهوه عن العطف والتعبير والتعجب. فإن أثر العمى في نفسه. على الرغم من دقة الشعور به. يمكن أن يخف جداً لأن الجماعة تصبح عوناً له وتشجعه على مغالبة رزئه والتغلب على قيده. وتقيه بسلوكها نحوه من التهويل بمصابه على نفسه.

ومن المحقق على كل حال أن ذهاب البصر ليس هو الذي حمل المعري على اعتزال الناس ورفض الحياة. وإيثار الوحدة والعزوبة وكراهة أكل اللحم وذبح الحيوان والطير.

ولو شاء المعري لتولى القضاء في المعرة أو حمص كما تولاه أبوه أبو محمد عبد الله وعمه أبو بكر محمد وجده سليمان وابن أخيه أبو اليسر ولو شاء لما حرم نفسه طيبات ما أحل الله. بل لو شاء أن ينهز مع الغواة بدلائهم ويسيم سرح اللهو مثلهم لفعل. فما حال العمى أو الصم أو الكساح بين أحد وبين ما يشتهي من ذلك. فإذا قيل إنه كان حساساً جداً وأنه يستنكف ويكره لنفسه أن يراه أحد خفيف الحلم أو على حال تزري به وأن شعوره بكرامته كان يأبى له أن يطلب فيمنع ويشتهي فيحرم. قلنا إن هذا ليس من العمى. بل من دقة إحساسه المرهف وفرط شعوره بنفسه.

ودع هذا واسأل ماذا حرمه العمى؟ إنه شاعر أديب وعالم متفلسف.. وقد عرف له أهل زمانه ومن جاء بعدهم من الأجيال غزارة الفضل ووفرة العلم وحدة الذكاء وسعة الإحاطة باللغة والحذق بالنحو وجودة الشعر والإلمام بكل علم معروف في عصره.. وكان تلاميذه يعدون بالمائتين. ويزحمون داره، ولما مات أنشد على قبره المراثي أربعة وثمانون شاعراً. فهو قد فاز في حياته بالحظ الأجزل من الشهرة والتوقير. ولا يزال إلى يومنا هذا في المحل الأول والأرفع بين شعراء العربية. أما فيما عدا ذلك مما هو من الحياة الخاصة الشخصية فما حرم شيئاً أو

كانت الآلة تعوزه فيه كما يقول وإنما حرم هو نفسه وآثر لنفسه العزوف وأبى عليها كل متعة. فالأمر مرجعه إلى إرادته لا إلى عماه.

كرامتان

وإذا قلنا إرادته فقد قلنا ما ينزع به إليه مزاجه السوداوي الخاص وما بنى عليه من الطباع. وهذا عندي هو مفتاح شخصيته والذي أرد إليه ما كان من سيرته. وقد جاءت عوامل أخرى فقوت استعداده الخاص فقد نشأ في بيت علم وفضل وتقوى. وكانت لأسرته مكانة عالية ومنزلة ملحوظة في بلدته الصغيرة. وحسبك من شعوره بكرامته وكرامة بيته في هذا البلد أنه وهو عائد من بغداد بعث إلى أهل المعرة بكتاب ينبئهم فيه أنه اعتزم أن يلزم داره ويعتزل الناس. كما يفعل الحاكم أو القائد حين يقدم على بلدة فيدع كتابه (أو منشوره) يسبقه إليها ببلاغ منه. وكان هو إلى ذلك عالماً ضليعاً وأديباً رفيعاً فاجتمعت له كرامتان: كرامة علمه وأدبه وفضله، وكرامة بيته وآله. وخلق حساساً جداً حتى لكأنما يحس الدنيا بأعصاب عارية لا يسترها لحم ولا يقيها جلد. فهي أبداً مكشوفة معرضة للمؤثرات مباشرة. ولهذا كان يخجل

أن يرى وهو يأكل مخالفة أن يرى منه ما يعاب. ومثله يحرص على اجتناب ما يعرضه للمهانة أو الزراية أو السخرية ومن هنا لجاجته في تنغص نفسه وقوله أنه كلب لئيم وأنه جاهل وناقص وأنه أعمى ضال كأنما يريد لفرط شعوره بذاته أن يسبق الناس إلى ذمه. ولا يدع لهم ما يقولون فيه أو يعيبونه به. ومثله ينزع إلى العدل والإنصاف. لأن الإنصاف سبيل النجاة والأمن لمن كان يفطن فطنته إلى مواطن ضعفه وقصوره ويحس بها إحساسه. حتى لقد عرف الدين بأنه إنصاف الناس ولا عجب بعد ذلك أن يكون رقيق القلب رحيمه. وإن كانت رحمته مفرطة حتى ليقشعر بدنه حين يقدمون له فروجاً أوصى له به الطبيب في مرضه ويقول: "استضعفوك فوصفوك. فهلا وصفوا شبل الأسد؟" وقد ثقلت عليه محنة العمى وشقت جداً لأنها ظلم حاق به بغير ذنب. فظل ثائراً على هذا الظلم كثورته على كل مظاهره الأخرى في الحياة. ولم تكن ملازمته داره واقتصاره على أكل البقول ونفوره من اللحم إلا ضرباً من التحامل على النفس وتعذيبها. لا يستغرب. فإن تعذيب النفس نوع من إثبات القوة فكأنه لما أنس من نفسه العجز عن أن يكون ذا بأس وصولة بين الناس تحول إلى نفسه وحمل عليها وعالج رياضتها لينعم بالشعور بالقوة والاقتدار وكل امرئ

ينـزع بطبعـه إلى تعـويض الـنقص الـذي يعرضـه أو يحسـه ولـو إحساسـاً غامضـاً. وتلـك حقيقـة لا تحتـاج إلى بيـان. وأحسـب أن ممـا يجـري هـذا المجـرى شـدة تكلفـه في اللزوميـات وإلزامـه نفسـه فيهـا مـا لم يلـزم أحـداً. وإكثـاره مـن الغريـب فيهـا وفي نشـره. وتحريـه الموشـى وغير المـأنوس من الألفـاظ حتـى كتـاب (الفصـول والغايـات) جعلـه فصـولاً غاياتـه أحـرف مرفوعـة أو منصـوبة أو مجـرورة. وذلـك كلـه لإثبـات القـدرة والرسـوخ في العلم والاستبحار فيه. بل التفوق والتميز.

مع المتنبي

وهنـا موضـع سـؤال: لمـاذا أحـب المعـري أبـا الطيـب المتـنبي كـل هـذا الحـب؟ وأعجـب بـه وأكـبره إلى هـذا الحـد؟ حتـى تعرض للأذى من أجله؟ وألف فيه كتاباً سماه (معجـزة أحمـد) لقد كان يتعصب له تعصباً عجيباً وليس هو بالذي يخفى عليه أن هنـاك شـعراء آخـرين لا يقلـون عنـه شـأناً. وأن معـاني المتـنبي ليست كلها مما ابتكر وأن كثيراً منها يوجد في أشعار غيره. ولقد ألف في أبي تمام كتاباً سماه (ذكرى حبيب) فما هو سر هذا التعصب المفرط؟.

عندي أن السر هو شخصية المتنبي لا شاعريته. فقد كان المتنبي يمثل كل ما ينقص المعري أو ما يحس المعري أنه ينقصه: الجرأة والإقدام والثقة بالنفس والاطمئنان إلى صواب ما يرى والجزم في الأمور والفحولة التي تخرج المعنى مخرج المثل السائر وتجعل منه عملة. وعلى الخصوص اليقين الجازم والثقة بالنفس وانتفاء الحيرة والاقتناع بأن فهمه للناس وللحياة صحيح لا يرتقي إليه الشك. وكل هذا ينقص المعري فهو أبداً مضطرب لا يستقر. وحائر لا يهتدي لا يطمئن إلى رأي ولا يثق بصواب ولا يرضى عن نفسه ولا يحول عينه عما يدركه من قصورها وعيوبه يحس أن في وسعه أن يجترئ ويلقى بنفسه في عباب الحياة ويفرق تياره إلى حيث يتطلع ويرجو أو يراه من حقه.

وأحسب أن كل من قعد يفكر ويتدبر على نحو ما يفعل المعري. لا بد أن يضطرب اضطرابه ويضل ضلاله ويقع في مثل حيرته، فإن هذه أمور شكال لا سبيل إلى الاهتداء فيها إلى ما يقنع العقل. وليس المعري مبدع في هذا فإن له لأنداد كثيراً في الشرق والغرب

"هملت" شكسبير

ولقد كنت منذ أيام أراجع رواية "هملت" شكسبير الشاعر الإنجليزي، فإذا بي أقرأ لهملت وهو واقف مع حفاري القبور وفي يده جمجمة:

"أتظن أن الإسكندر كان هذا منظره في الأرض؟".

فيقول رفيقه هوراشيو "تماماً".

فيقول هملت "وكانت له هذه الرائحة؟ أف".

هوراشيو "كذلك يا سيدي".

هملت "إلى أي درك نصير يا هوراشيو.. لماذا لا يتعقب الخيال رفات الإسكندر النبيل حتى يجده يسد ثقب برميل؟.. مثلاً: مات الإسكندر. دفن الإسكندر. عاد الإسكندر تراباً. والتراب في الأرض. ومن الأرض نصنع الصلصال ومن هذا الصلصال الذي تحول إليه ماذا يمنع أن يصنعوا منه ما يسد برميل بيرة؟.

فأذكرني هذا قول أبي العلاء:

إذا غـدوت بـبطن الأرض مضـطجعاً

فـــثم أفقـــد أوصـــابي وأمراضـــي

تيممـــوا بترابـــي عـــل فعلكـــم

بعـــد الهمـــود يـــوافيني بأغراضـــي

وإن جعلــت بحكــم الله في خــزف

يفضــي الطهـور فـإني شـاكر راضـي

والبيت الأخير هو الشاهد.

وتأمل صيحة هملت بأوفيليا حبيبته:

"إلى الدير.. لماذا تريدين أن تكوني أماً لآثمين؟ إني أنا نفسي رجل شريف إلى حد ما. ومع ذلك أستطيع أن أتهم نفسي بأشياء يبدو معها أنه كان خيراً لو لم تلدني أمي. وأنا رجل متكبر جداً وبي من المغريات بالشر فوق ما يحيط به الفكر ويصوره الخيال أو يتسع لارتكابه الزمن. ماذا يصنع أمثالي وهم يزحفون بين الأرض والسماء؟ إننا جميعاً أوغاد أشرار. فلا تصدقي أحداً منا".

ثم يقول لها: "إذا كان لا بد لك من الزواج فتزوجي مغفلاً. فإن العقلاء يعرفون كيف تحلنهم وحوشاً شنيعة... إلى الدير، اذهبي بسرعة".

وما أكثر ما أبدأ المعري وأعاد في هذه المعاني. وما أشبه رأي هملت في المرأة برأي شاعرنا الذي يعد النساء فوارس فتنة وأعلام غي.

وتأمل مناجاة هملت لنفسه "نكون أو لا نكون؟ هذه هي المسألة" وهي مشهورة يقول فيها أن الموت رقدة تنتهي بها آلام القلب وجراح الجسم وأوجاعه كما يقول المعري "إنما الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد" ولكن الموت قد تتخلله الأحلام. فأي أحلام نراها يا ترى إذا سلبنا الحياة كما يتساءل المعري "كيف لي بمخبر، يعتام نقائص ما أحذر عليه، يعلمني بعد الموت كيف أكون؟".. وكما يقول:

وبين الردى والنوم قربى ونسبة

وشتان بـرء للنفوس وإعلال

إذا نمت لاقيت الأحبة بعدما

طوتهم شهور في التراب وأحوال

وكما يسأل:

"سبحانك مؤبد الآباد... هل للمنية نسب إلى الرقاد؟"..

ولا يزال هملت يلهج بمنحة الحياة وسهام القضاء وسياط الزمن وظلم الظالمين وصلف المتكبرين.

وبطء تحقيق العدل ووقاحة ذوي الأمر وبغيهم وإحناء الظهر تحت أثقال الحياة واحتمال ذلك الشقاء فزعاً مما بعد الحياة ومن بعدها مجاهل لم يعد منها مسافر. وهذا خوف يقل العزم ويغري المرء بالرضى بآلام يعرفها واتقاء ما يجهل ـ وذلك كله ما كان يلهج به المعري.

ويتكرر مثل هذه الآراء في الناس والحياة ومصائر الخلق في روايات أخرى مثل تيمون الآثيني وما كبث والملك لير وغيرها.

فاوست

وندع شكسبير وما يجريه على ألسنة أبطاله. وننتقل إلى جوته الشاعر الألماني وروايته "فاوست" على الخصوص. وهي كما وصفها الشاعر "جولة بين الأرض والسماء" وفاوست رمز للإنسان الذي ينشد المعرفة ويبغي أن يحيط علماً بسر الحياة

وقد وجد أن المعرفة المستفادة من بطون الكتب التي كان يعكف عليها لا تفيده يقيناً ولا تكشف له عن سر ولا تبيحه مجهولاً أو مغيباً. وقد بلغ من يأسه أن باع الشيطان نفسه. وعاهده أن يسلمه روحه إذا وسع إبليس أن يفيده الدعة والاطمئنان واليقين فبدآ معاً رحلة طويلة لا داعي لوصف مراحلها فإن القصة معروفة. وقد ذاق في رحلته مرارة الندم وضاق به الفضاء الرحيب فالتمس ما وراء ذلك لعل الخيال يغني حيث لم تغن الحقيقة وقد أعياه ـ على الرغم من مقدرة الخيال ـ أن ينحي الأستار المسدلة. ولم يجده رفع طرفه إلى السماء ومحاولته أن يطوف في الأبد ويجوبه. ولم يقنعه أن يتقبل الحياة كما تجيء وإن كانت لا ترضيه وأشقاه عقله الذي طغى على نفسه ولم يستفد إلا الحيرة اللازية وإدراكه مبلغ جهله. ولم يصل إلى شيء من ثالوث أفلاطون ـ ثالوث الحق والجمال والخير ـ واستعان بالشيطان على ضعفه البشري فآب بالندامة والخسارة.

وليست هي إلا قصة أبي العلاء في حيرته ونشدانه الحقيقة واليقين في كل ما يستجليه ويفكر فيه. بل قصة كل مفكر من بني الإنسان في هذا العالم.

سانين

وقد ترجمت منذ ربع قرن وزيادة قصة روسية اسمها "سانين" وقد سميتها "ابن الطبيعة". ومن أشخاصها من يدعى بوري يشهد جنازة منتحر فيستهول أنه لم يعد موجوداً. وإنه كان شيئاً فأصبح لا شيء. ذهب كالتراب المكنوس ولم تبق منه إلا القبعة على النعش. ويفتح الإنجيل فيقرأ فيه أن من يهبط إلى الأرض لا يصعد أبداً... فيقول:

"ما أصدق هذا وأحكمه حتم فظيع. هذا أنا أعيش ويلج بي الظمأ إلى الحياة واللذات. ثم أقرأ هذا القضاء المبرم ولا يسعني حتى أن أحتج عليه"...

ويناجي القوة الخفية فيقول:

"ماذا جنى الإنسان عليك حتى تسخري منه هذا السخر؟ إذا كنت موجودة فلماذا تخفين نفسك عن عينيه؟ لماذا تجعلينني إذا آمنت بك لا أؤمن بإيماني؟ (كأبي العلاء تماماً) و إذا أجبتني فكيف أعرف أأنت المجيبة أم نفسي؟ وإذا كنت على حق في رغبتي في الحياة وطلبي لها فلماذا تسلبيني هذا الحق الذي منحتني إياه؟ إذا كانت بك حاجة إلى آلامنا فدعينا نحملها من أجل حبنا لك. ولكنا لا نعرف أيهما أعظم قيمة:

الشـجرة أم الإنسـان؟ إن الشـجرة دائمـة الأمـل، إذا قطعـت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وأن تسترد الخضرة وتفوز بحياة جديدة. أما الإنسان فيموت ويزول، يرقد فلا ينهض مرة أخرى. ولو أني كنت على يقين من أني سأحيا مرة ثانية بعد ملايين السنين. لرضيت أن أنتظر في صبر كل هذه القرون في الظلام".

وهذه معان تقرؤها كلها في المعري نثراً وشعراً فقد مزق قلبه بها طول حياته.

ومما يستحق الذكر أن بطل هذه الرواية "سانين" يبدي رأياً في يوري هذا الذي يعذب نفسه بالتساؤل الذي لا يجدي فكأنه يبديه في المعري وذلك حيث يقول:

"إن الإنسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه جزء منها وقد يسخط ولكن مرجع السخط إلى نفسه. فهو إما لا يستطيع أو لا يجرؤ أن يأخذ من خيرات الحياة ما يسد حاجته. ومن الناس من يقضون حياتهم في السجون. وهناك آخرون يخافون أن يفروا منها كالطائر الأسير يفرق في الطيران إذ يطلق له والجسم والروح يكونان كلاً متجاوباً لا يزعجه إلا دنو الموت الرهيب. ولكنا نحن نقضي على هذا التلاؤم بسوء

فكرتنا عن الحياة. فقد زعمنا أن رغباتنا الطبيعية حيوانية. وصرنا نحس العار والخجل منها ونخفيها في صور وضيعة والضعاف منا لا يفطنون لهذا بل يقضون حياتهم في الأغلال المضروبة عليهم. أما الضحايا فأولئك الذين تقعد بهم آراؤهم المقلوبة. ولا شك أن القوى المحبوسة تتطلب منفذاً. وأن الجسم ينشد السرور واللذة وأنه يتعذب من جراء عجزه وقصوره. فهؤلاء وأمثالهم حياتهم صراع دائم. وشك مستمر يتعلقون بكل ما يقدرون أن يعنيهم ويفضي بهم إلى نظرية أخلاقية أحدث وأجد ، ولا يزالون كذلك حتى يعودوا وهم يخافون أن يعيشوا ويحسوا.

هذه حال المعري وصفها أديب روسي على لسان شخص متخيل أصدق وصف. أراد أن يحلق فوق الحياة فعجز. لأن ذلك مستحيل لا يستطيعه إنسان. وتهيب الحياة ففر من ميدانها. وخاف نفسه فألجمها وألزمها القيد فانتقمت منه وثأرت لنفسها القوى التي حبسها وسد عليها كل فج. فتعذب وراح يتساءل لم ولماذا؟ ويبحث عن الحق والخير والعدل. ويحاول أن ينفذ ببصيرته من أستار غيب الله المسدلة وهي كثيفة. فما اهتدى إلى شيء يستريح إليه العقل وتطمئن به النفس. وصار

كما يقول بطل هذه القصة يخاف حتى أن يعيش ويحس. لأنه يتألم ولأنه يجهل المصير.

***

وبعد فإن مجال الكلام ذو سعة. ولكني لست الوحيد الذي قال أو يقول في أبي العلاء. وليس من حقي. ولا في مقدوري أن أحاول الإحاطة بكل جانب وأن ألم بكل ناحية. فحسبي ما قلت على القصور فيه والعجز وإني لشاكر لكم صبركم وسعة صدركم ومعتذر إليكم من التقصير.

المحتوى

إبراهيم عبد القادر المازني/ بقلم: د. نزار بني المرجة 5
(رحلة الشام) لإبراهيم عبد القادر المازني 11
إضاءة على شخصية وأدب إبراهيم عبد القادر المازني
فلسفة المازني/ بقلم الأديب المصري حافظ محمود 17
رحلة الشام لإبراهيم عبد القادر المازني
وكلمته في مهرجان ألفية أبي العلاء المعري 27
كلمة الأديب إبراهيم عبد القادر المازني في
ألفية أبي العلاء المعري 97

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة -فؤاد الشايب -د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالد محي الدين البرادعي	2007
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
16	ياليل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبة قمر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكان وسكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
29	جبرا ابراهيم جبرا- عرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
30	محمود درويش - مختارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمال أخرى- غسان كنفاني	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
33	حكاية الولد الفلسطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أسئلة الثقافة في القدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان في القصة السورية (حضور المكان)-علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
39	مختارات قصصية رقصة ليلة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
40	شفيق الكمالي – مختارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبير سلطان قدوري	فاديا غيبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
42	الظل الثالث وقصص أخرى مختارات قصصية - د. خليفة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	انطوان تشيخوف دراسات ونصوص د. شاكر خصباك	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المقالح	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المقالح	2010
45	عبد الله البردوني قصائد مختارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابراهيم الجرادي	2011

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسعينيات والأنماط الشعرية السائدة)	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
47	مختارات من أدب الخيال العلمي العربي - رقم 004 يأمركم	د. طالب عمران	د. طالب عمران	2011
48	الله والغريب مختارات شعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. ثائرزين الدين	2011
49	مایاکوفسکي غيمة في سروال	مالك صقور	د. ابراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليأس : أمل يستنسخ أوصافه	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفراتي مأخوذاً بالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علي جعفر العلاق	د. ابراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صقور	مالك صقور	2011
55	جان جاك روسو المصلح الاجتماعي - محمد عطية الأبرشي	مالك صقور	مالك صقور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صقور	مالك صقور	2012
57	حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صقور	2012
58	بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) عام 1968 مدحة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صقور	2012
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
61	كان ما كان ـ ميخائيل نعيمة	مالك صقور	مالك صقور	2012
62	إمـرأة مـن بـرج الحمـل ـ اعتـدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صقور	مالك صقور	2012
64	الأعاصير ـ الشاعر القروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثائرزين الدين	2012
65	عبـد اللطيـف عقـل دراسـات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صقور	مالك صقور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
71	طبـائع الاسـتبداد ومصـارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صقور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
75	الفقـه والتصـوف والمسـائل الشرعية في الخلافة	أ. محمـد راتـب الحلاق	مالك صقور	2013
76	ًصالح العلي ثائراً وشاعراً	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
79	الأديـب والمفكـر أبـو حيـان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
81	مديح الظل العالي	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
90	الفارابي	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
93	مذكرات مستر همفر	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
94	صوت أبي العلاء	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
95	فن الأدب (جزء 1)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
96	فن الأدب (جزء 2)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
97	الإسلام بين العلم والمدنية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
98	حكيم الدهر أبي العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2015
99	شظايا من عمري	شاهر أحمد ناصر	مالك صقور	2015

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
100	لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
101	الدين والعلم والمال		مالك صقور	2015
102	غابة الحق (أفق التنوير وجماليات السرد)	نذير جعفر	د.نضال الصالح	2015
103	في الحياة والأدب	نذير جعفر	د.نضال الصالح	2015
104	إن الأدب كان مسؤولاً	مالك صقور	د.نضال الصالح	2016
105	أسرة المرّاش الأدبية في حلب	د. نضال الصالح	عيسى فتوح	2016
106	الجوهر الرجعي للصهيونية	مالك صقور	مالك صقور	2016
107	سريال وقصائد أخرى	د. نـــزار بريـــك هنيدي	د.نضال الصالح	2016
108	حضارة الطين	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016
109	ضرورة الفن الجزء الأول	نذير جعفر	مالك صقور	2016
110	ضرورة الفن الجزء الثاني	نذير جعفر	مالك صقور	2016
111	قادة الفكر	فلك حصرية	مالك صقور	2016
112	جرائم تركيا في سوريا والعراق والحجاز ولبنان	حكمـــت إبـــراهيم هلال	مالك صقور	2016
113	خارج الحريم	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016
114	عيسى عصفور (بلاغة البازلت)	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2016